الفصل الحادي عشر
نهاية وبداية

في الشهر التالي بعد عودة الجد علي بن حمد إلى بلدته، وصلته أنباء غير مؤكدة عن تحرك الإمام فيصل بن تركي، من الأحساء متوجهاً صوب اليمامة يرافقه حشد من المسلحين. ولم يعر ذاك الخبر اهتمام كثير، فقد كان مشغولا بشؤون أهله وتجارته وزراعته ودوابه، إلا ان الأهم من ذلك هو الارهاق الذي غدا يشعر به يتزايد منذ أن تخطى الستين. لقد "وهن العظم واشتعل الرأس شيبا" وتدحمل الجِلد وضعف السمع وتدنت الرؤية وبدأت الأرجل تخور، لكن رغم ذلك بقيت الثقة في الله قوية يستمد منها الجلد والصبر، مع عزيمة صارمة لطلب مرضاته ومعاونة عباده. في جلسة عزاء لأحد أعيان الحريق، تحادث البعض في وقار عن أنباء عودة الإمام إلى نجد بعد غيبة لعدة شهور شرقاٍ، ورغم عدم ملائمة المكان إلا ان البعض آثر عدم تفويت الفرصة، فقد حضر حشد من كافة أسر البلدة وقادتهم، فقال أحدهم ماذا يريد فيصل من العودة، حيث فقد شرعيته لما فر من عاصمة امارته، أيده آخر بأن فيصل عاجز عن صيانة سلطته على البلاد، ولما وصلته أنباء انتصار المجاهدين في الحلوة قرر العودة. وأردف آخر القول بأن إسماعيل بيه قد أرسل يطلب المدد من مصر، وقد بدأت تصل اليه قوات من الحناكية وينبع، كما أن كثير من أهل الرياض يؤيدون الأمير خالد، ولا يرغبون في عودة القتال لمدينتهم. ولما علت الأصوات أشار الجد علي لجماعته، بعدم ملائمة ذلك الحديث في العزاء، كما أمر الهزاني جماعته بالكف عن اللغط.

بينما كان الجد يتابع أعماله في بستان النخل، لاحظ تدني مستوى المياه في البئر، وقد كان ذلك الصيف شديد الحرارة، ومعدل تساقط المطر في الربيع الماضي كان أقل من المعتاد، لذا غارت مياه الآبار وأضحى واجباً عليه جلب مزيد من العمال بالفؤوس لتعميقها، كما يلزم بعضها اصلاح بطانتها (الطوي) حتى لا تتهاوى فيها الأتربة. لذا فقد زاد ركونه لحفيده زيد بن عبدالله، ليتولى مراقبة تلك الأعمال الشاقة والباهظة الكلفة، حيث يتمتع زيد بقدرات فكرية وجسدية متميزة، تتيح له انجاز ما يوكل اليه بنجاح. ورغم ان الحفيد زيد آنذاك لم يكد يتجاوز العشرين من عمره، الا انه كان متميز الأداء وعلى دراية جيدة بأنجع أساليب إدارة المزارع ورعاية المواشي، سريع الفهم والحفظ قوي الادراك قادر على تحسين طرق أداء العمل. ولوحظ عليه الذكاء والنشاط منذ صغره، لذا قال عنه قرابته انه "ولد رجلا" بينما يولد الناس أطفالا، ثم توسعت مداركه بعد أن الحقه والده بأفضل مدرسة "كُتاب" في البلدة، كما توفرت له في المنزل كتب ثمينة في الفقه الشرعي والتاريخ والآداب، حيث لديه نهم لاكتساب المعارف والخبرات. إضافة لذلك كانت يتمتع بقدرات جسمانية فائقة، تساعده في أداء مهام شاقة لا يقدر عليها البعض، والأهم من ذلك هو دماثة خلقه ورقة كلامه، رغم ما يطرأ عليه

في بعض الأحيان من حدة في القول. ورغم كل تلك المزايا فلم يسلم من نقد المبغضين، الذين تقولوا عليه بشئ من النقائص، مثل مهارته في الأداء حيث عدها البعض من اعمال الحرفية والمماليك، والتي لا تليق بأبناء شيوخ البلدة، كما ادعى عليه آخرون أنه حاد المزاج وذو شجاعة متهورة وإقدام طائش وتسرع في التصرف، مما سنسرد شيء منه في الصفحات اللاحقة. أما والده (الجد عبدالله) وجده علي فقد كانا فخورين بما يتحلى به العم زيد من مناقب طيبة، وورع جم وخلق رفيع وهمة عالية وبعد عن الخمول والتواني، لذا فقد كانا يعهدان اليه بأداء المهام الصعبة، ويرسلونه لقضاء الحاجات الضرورية.

وبينما افراد الأسرة من الأجيال الثلاثة مشغولون في متابعة تجارتهم وزراعتهم ودوابهم، فوجئ الجد علي بحضور رجال من الحائر، أفصحوا لهم أن السبعان سيتوجهون نحو الرياض خلال أيام، حيث قرر الإمام فيصل أن ينقض عليها لاستعادة السيطرة على عاصمة امارته. حاول الجد الاستفسار منهم عن عدد القوات المصرية في الرياض ونوعية سلاحهم، لكنهم لم يزودوه بما يشفي الغليل بل الحث على سرعة التوجه للحاير، حيث سيتجمع فوج من سبعان اليمامة قبل التوجه للرياض. في اليوم التالي كان ثلاثتهم مع بعض افراد الأسرة في تجمع لأهل البلدة، وانصب الجدال حول الدعوة الواردة من الدلم، للتوجه للرياض لإخراج عساكر مصر منها، لتعود قاعدة إمارة الإمام فيصل بن تركي. قال البعض من مختلف عشائر الحريق ومنهم نفر من آل خثلان، ان تلك معركة رديئة فما هي إلا نزاع بين فرعي ذرية محمد بن سعود (آل عبدالعزيز وآل عبدالله) وليس لنا صالح أو منفعة في تأييد طرف ضد الآخر، والدخول في سفك دماء بين آل سعود، وعلينا أن ننزه سلاحنا وألسنتنا عن الخوض في ذلك، حيث أن كلاهما من ذرية أولاد الإمام محمد بن سعود، وهم قرناء لبعض ويمكن تسوية أمرهم بينهما بدون تدخل منا، نقع بعده في اللوم لتشجيع طرف ضد قريبه. على النقيض من ذلك كانت هناك جماعة أخرى ترى خلافه، فمنهم من يرى ان الإبن الأكبر للإمام محمد بن سعود (عبد العزيز) هو من تولى الحكم بعد وفاة أبيه، ثم تسلسل ذلك في ولده سعود ثم حفيده عبدالله لذا فإن المنصب هو للأمير خالد، ويجب على ابن عمه فيصل بن تركي عدم منازعته. وهناك آخرون يرون ان ذرية عبدالعزيز لم يعد لهم حق في الحكم، بعد أن ادخلوا البلاد في عدة نكبات لسوء تدبيرهم، وقد تولى الإمام تركي بن عبدالله الحكم بدون عون من الغرباء، وعضيده ولده فيصل أثبت قدرته على سياسة الحكم بنجاح، وهو الأجدر بالاستمرار في ذلك وعلينا مساندته. وقال آخرون ان جيراننا في الخرج والحوطة وليلى غالبيتهم يرون عدم التدخل في نزاع بين آل سعود، وعلينا عدم التحيز لطرف ضد الآخر. عندها استأذن العم زيد من والده وجده أن يبدي رأيه، فقال ان من غير الصحيح المساواة بين الإمام فيصل وابن عمه الأمير خالد، الذي ما جاء لنجد إلا تحت راية باشا مصر، ورضي أن يكون "مخلب هر" ضد قومه، ويبرر غزو عساكر مصر لديارنا، لينشروا فيها "البدع والمنكرات" ويقتلوا المجاهدين

وينهبوا المال، وقد تأثرت طباعه من ذهابه لمصر وهو صغير السن، ثم بقي فيها عشرين سنة فانطلت عليه طباع المصاروة، وصار يقلد احوالهم ويحبذ نشر طريقتهم في بلادنا. وهو ليس إلا العوبة في يد باشا مصر، ليبرر غزو أرضنا وافسادها، أما تصريف الأمور وتدبير السياسة فهو بيد اسماعيل بيه، الذي لا يقبل رأي أو توجيه إلا من سيده في مصر، بل وفي مجالسه المفتوحة يرفض أي رأي للأمير خالد، الذي يصفه أثناء غيابه "إنه البربري" حتى بوجود عامة المرافقين. وعلى النقيض منه الإمام فيصل الذي أمضي سنوات نفيه لمصر في طلب العلم، وكان لا أحد يراه إلا في رواق الحنابلة بالأزهر، يعكف على الدرس والتحصيل ولم يُرى قط في حوانيت القاهرة، لذا فادعاء التساوي بينهما مقارنة فاسدة. لذا اقترح ان نعمل بشرع الله في السعي للصلح بينهما، فإن بغى أحدهما على الآخر نقاتل الباغي كما قال سبحانه. أشار أحد الخثالين كبير في السن بيده، وقال أنت يازيد "مكبور" وهذا أبوك وجدك هم أجدر منك بالرأي، وانتقاصك من الأمير خالد في غير محله، فكلاهما عاش سنين طوال في مصر. وفيصل لما عاد للعارض فذلك بترتيب مع والي مصر الباشا الكبير، ولم نرى منه منذ تولى الحكم بعد مقتل والده حُسن تدبير، بل ضعف وارتخاء وتبدل في الرأي، مما أشكل على أعوانه وجعلهم يتخلون عنه الواحد تلو الآخر، وحتى الخدم والمماليك كادوا يبطشون به. أما الأمير خالد فهو من نسل الإمام عبد العزيز بن محمدبن سعود، الذي تولى هو وذريته حكم البلاد بدراية وحصافة لسنين طوال، وعبدالله بن محمد بن سعود (جد الإمام فيصل) لم يكن له دور يتجاوز قيادة بعض فرق المجاهدين، سواء في أثناء حياة والده أو في سنين حكم أخيه وذريته من بعده. لذا فالأمير خالد هو الأجدر بحكم البلاد، وعساكر مصر الذين معه إنما يقصدون تأمين السبل من اللصوص، لقاء جزء من ريع الزكاة لنفقتهم، ولا شك لدينا انه بعد سنوات قليلة سيحصل الأمير خالد على المعرفة بسياسة الأمور ويستغني عنهم. حيث ان المصريين غير محبي البقاء في فيافي نجد، بل يتوقون للعودة لديارهم على ضفاف النيل، وليس في طباع اكثرهم ما يخالف شرع الله ويؤدون الصلاة مع جماعة التوحيد. تضاربت الآراء واستطال النقاش والجدال حول الأمر، حتى قطعه أحد العارفين بالقول ان الأمير خالد، لم يطلب البيعة منا ولم يرسل في طلب العون والجهاد معه، فمن منكم يذهب نحوه بلا دعوة؟ لذا فالمسألة ليست في القتال مع فيصل أو خالد، بل في الاستجابة لنداء الإمام الذي عقدنا له البيعة، أو اعتزال هذه الحرب بين أبناء العم.

تداول الجد علي الأمر في الأيام التالية مع اخوته وأبنائه وحفدته والقرابة، وانتهى القرار على بقائه في الحريق، بينما ينفر ولده عبدالله مع من قرر الجهاد من آل خثلان، وأوصاهم بكف سلاحهم عن أهل الديار، وجعل رمايتهم على الأجناب (جمع أجنبي) البغاة على أرضنا الغرباء على منهج أخلاقنا الإسلامية. لما وصلوا الحاير قيل لهم ان أكثر السبعان قد سارعوا للتوجه نحو منفوحة، حسب رغبة رجال الإمام ومنها سيذهبون للرياض، لذا سارعوا الخطى شمالاً للحاق بهم. لكنهم لما وصلوا وادي حنيفة

وانحرفوا فيه يمينا، لاحت لهم على بعد جموع من الناس، على مقربة من "الصِنع" العريض المبني من الحجارة الكبيرة لسد جزء من المجرى عند فيضانه، ليدخل السيل المزرعة الجنوبية ويسقي ويخصب التربة. كان المكان في اضطراب وضوضاء ولم يعلموا عن تفصيل الحال، ثم عثروا على بعض الرفاق المتقدمين في الوصول، فقالوا لهم ان غالبية أهل منفوحة رفضوا دخول الإمام بلدتهم، او تقديم أي عون له حيث إنهم على الحياد لذا توجه نحوهم وحاصرهم، كما أرسل رجاله لحريملاء وجلاجل لطلب المدد. كانت إقامة الجد عبدالله ورفاقه على شاطئ الوادي الضحل في شظف، حيث المكامن قليلة واتجاه المجرى هناك من الغرب للشرق، فلا تظهر فيه ظلال حتى المغرب، وشمس السنبلة في "حَجر اليمامة" شديدة الحرارة، وهم يقولون لا حر إلا بعد انصراف الشمس عن المدار، ويسمون ذلك البرج "سم وبلى" نسأله العافية. أرسل الجد أحد عماله للحائر لشراء ما قد يجد من خيام الكتان والجوت أو بيوت من شعر الماعز، وشيدوا لهم مأوى خفيف بين الاشجار المتباعدة، ينتظرون ما يصلهم من أوامر معاوني الإمام. الجميع يتطلع شمالا نحو منفوحة، التي تبعد مسيرة ساعة لكنهم لا يرون سوى الزراعات على أطرافها الجنوبية، لكن الأخبار عن موضع الإمام وقواته شحيحة، ويمنع بصرامة على أي منهم التوجه هناك، وبالكاد يسمعون رماية متقطعة مثل الإشارات. بعد أيام وصلهم نفر قليل من المحمل وسدير، معهم سلاح خفيف وأكثرهم من المماليك أو القصابين، بل ان بعضهم يصاحبه صغاره ونسائه، وبدا ان من أرسلهم غايته "رفع العتب" وليس المحاربة، ثم جاءهم محاربون أرسلهم العفيصان من كوت الأحساء.

وجود النسوة وأطفالهن كانوا نعمة على الجماعة، فقد كانوا يتسللون للقرى المجاورة ويجلبن بعض مستلزمات المعيشة للمقاتلين، ويبيعونها بأسعار متهاودة لسد الحاجات اليومية، مما خفف من معاناة الجد عبدالله وأعوانه، لجلب متطلباتهم من بعيد في طريق خطرة. ذات ظهيرة أحد الأيام بلغهم نباء سار، بأن الإمام فيصل قد تواصل مع بعض أصهار أبيه (الإمام تركي رحمه الله) من أعيان منفوحة، فأقنعوا الأكثرية بعدم جدوى البقاء على الحياد بين فيصل والبيه، حيث في رقابهم بيعة شرعية للإمام وعليهم أن يقفوا معه في المنشط والمكره. وإن وجود الأمير خالد لا يضفي أي شرعية على عساكر مصر بل هم بغاة مفسدون للدين والديار، لذا قاموا بفتح أبواب البلدة (القرية) ودخلها فيصل وأعوانه وخدمه سلماً. في اليوم التالي وردتهم أوامر لشد الرحال من عند "الصنوع" أو المصانع كما في لفظ كتاب الله الكريم، والتوجه نحو منفوحة والانضمام لبقية قوات ابن سعود فيها. وجدوا هناك ترتيبات طيبة وامدادات وافرة، ورغد عيش لم يكن وافراً مقارنة ببيوتهم في حريق نعام، إلا انه جيد للغاية مقارنة مع ما كانوا فيه من شظف عند صِنع (حاجز) السيل، لا يتوفر لهم إلا الرديء مما يجلبه الصبية والنسوة. اغتسلوا ورتبوا هندامهم وطبخ لهم العمال طعام شهي، وظلوا لأيام فيما يشبه النعيم داخل بيت طيني صغير، إلا ان الجد عده مما قد يُسألون عنه يوم اليقين.

لكن ذلك لم يستطل فقد أقام لهم الإمام وليمة حافلة بأطيب الطعام، ثم أخبروهم لشد الرحال "بكرة الصبح" والتوجه شمالا نحو الرياض، التي وصلوها عند الظهيرة فوجدوا مخيم كبير، يقع على مبعدة من حائط الرياض باتجاه الجنوب الشرقي، حيث لاحظ الجد وجود خندق ضيق غير عميق، لكنه يعرقل مسيرة الركائب قليلا، وعلِم ان هناك شعيب صغير جهة شمال البلدة، أما شرقها فوادي الوتر الشهير العريض، وتجاه الغرب زراعات ونخيل وسواقي تمتد نحو "صياح" حيث يوجد شعيب آخر ينحدر جنوباً من طرف "المعذر" وروضة الوشام حتى يصب في حنيفة.

في المهجع تداولوا مع الرفاق أنباء ساحة الوغى، وأحوال المكان الذي تسوده حركة كثيفة من الجنود والركائب، وتشاهد في نواحيه كميات وافرة من السلاح الناري والأبيض والذخيرة. فهم الجد ان القيادة المصرية في ينبع، قد استجابت لاستغاثة إسماعيل بيه بعد هزيمة عساكره في الحوطة، وقد وصلت قبل أيام كوكبة من القوات المسلحة بعتاد ثقيل، يساندون من بداخل أسوار الرياض. كما ان العفيصان في الهفوف قد استجاب لدعوة الإمام، فأرسل أحد قرابته بالمزيد من الرجال، ومعهم سلاح كثير جلب من الهند عن طريق العقير. وذكر البعض ان الإمام قد توفرت له كافة مقومات الهجوم على الرياض، والقضاء على الغزاة البغاة وتطهير نجد من أذاهم، وهو يعد الخطط لأنجع أساليب دخول عاصمة إمارته، وتطهيرها من الأشرار الذين جاءوا يتسترون تحت اسم ابن عمه المغلوب على أمره بلا حول ولا فكر. لكن آخرين تحدثوا عن خلاف ذلك، فقالوا إن إسماعيل بيه ضابط قيادة عساكر مصر، لديه مهارة وحصافة قتالية جمة، وقد رتب عدة وسائل فعالة لصد أي هجوم على البلدة، وشيد تحصينات متينة للحوائط والبوابات (الدراويز) كما درب جنوده على فنون الدفاع وصد الهجمات، في انتظار قدوم المزيد من المدد الذي طلبه من سيده والي مصر.

ذات صباح لاحظ الجد فرط حركة في المخيم، ثم نما إلى علمه ان الإمام يعد ست فرق للهجوم على سور الرياض واقتحام البلدة، وفرقتان تتوليان مهمة التوغل فيها والوصول إلى القصر، حيث يوجد البيك إسماعيل والأمير خالد بن سعود. كانت إحدى الفرق من سبعان الجنوب (اليمامة) وثانية من سبعان الشمال من رماح وسدير والقصيم، يقودها "الجمل" وفيها ناس من العرينات والعمران والسُليم. الجد أخذ مكانه مع جماعته في الفرقة الأولى، التي يقودها رجل من حائر سبيع يقال له فراج السهلي، ومعهم لفيف من سبعان المحمدي والفُرع وليلى، ونفر من قحاطين الخرج والرين واللدام. جاءهم اثنان من الحساوية معهم جرار من الطين المحروق، مليئة بالقطران (الزفت) ذو الرائحة الكريهة وسريع الاشتعال، ودربوا البعض على طريقة سكب ذلك السائل الغليظ على البوابات الخشبية ثم اشعال النار فيها. حيث اتضح أن الأبواب مردومة من الداخل بالتراب، حيث خلف كل باب تل من الحجارة والأتربة تمنع دكه من الخارج، وطلبوا منهم أن يباشروا فور احتراق الخشب باستخدام المعاول، لإزالة تل الردم لفتح منفذ يدخل منه المقاتلون. تسللت كتيبتهم بعد منتصف الليل متجهة نحو بوابة تقع في جنوب

الغرب، وشاهدوا بقية رفاقهم يسيرون صوب بعض الدراويز، مروا على مقبرة صغيرة فانتقد "حريقي" وجودها باتجاه قبلة الجامع، فرد عليه قريبه ان الجامع داخل السور وفي قبلته أسواق ومنازل، بينما عاتبه آخر لأنه "يفتش المنقود" وحبذا لو يهتم بحاله. باشر الجد في سكون وظلمة الليل فتح جرة الزفت، ففوجئ أنها تيبست مثل الحجر، كانت تهب في آخر الليل نسائم شمالية باردة، والعارض بعد أن انقضى الميزان تنخفض حرارته، كما ان "الصَّفِري" زمن العلل و "الصخاين" على البشر. أرادوا اشعال نار ليذوب القطران فخافوا أن يفطن لهم الحرس، واقترح أحد مرافقيهم من مماليك آل سعود، اعتاد الدخول والخروج كأنه يخدم الطرفين، ان يتجه شمالاً حيث الفحم ويحضر لهم في منقل حديد بعض الجمر. ذاب الزفت بمجرد اقتراب الجرار من الجذوات الساخنة، لكنهم لما اقتربوا من الباب الخشبي الكبير وجدوه رطب وبارد، وحدثت عندهم جلبة ولغط نبهت الجنود في الأعلى. باشر المدافعون في ارماية من مزاغيل في الأعلى، ثم قام بعض عمالهم بسكب مزيد من المياه، تنحدر من ميازيب علوية على خشب الباب فتمنع التصاق واشعال القطران. تنبه بقية حراس الحائط لوجود هجوم عليهم، فاشتعلت بقية جوانب الرياض باطلاق النار من مئات البوارید، ثم جاءهم مرسول من السهلي ينصح بوضع القطران على جوانب الباب، حيث تنحسر عنها المياه وتبقى جافة فنجحوا في شب النار التي سرعان ما امتدت لبطنه، فقد تيبست من قوة اللهب عوارض الخشب ولم يؤثر فيها الماء القليل المتسرب من أعلى. اشتدت كثافة الرماية من أعلى ورغم تسترهم منها بالالتصاق عند الخوخة، إلا ان بعض الرفاق جرحوا من جراء البارود، ورغم شدة ظلام الليل وصعوبة الرماية نحو الأسفل، إلا أن عساكر إسماعيل ومن تعاونوا معهم من أهل الرياض، تمكنوا من تصويب بنادقهم نحو المهاجمين عند البوابة. وظن الجد أن العدو لا يستخدم قطع الرصاص، وإنما حصى دقيق صلد يحشى في البنادق مع ملح البارود، فينتشر على نطاق واسع وبسرعة عالية وحرارة شديدة. تسبب جراح مؤذية في أجساد الرجال، مما اضطرهم للكمون في زوايا لا تصلها الرماية من أعلى السور. بعد برهة مرت كأنها دهر جاء أمر بإيقاف العمل في الهجوم، وحمل المصابين والعتاد للتوجه بشكل فردي نحو مخيم القيادة، ونجحوا بفضل الله في الوصول لمقرهم، حيث تلقاهم أحد الرفاق قائلا "النحشة ثلثين المرجلة" فأوسعوه شتماً.

في الأيام التالية كانت أحوال الحصار ساكنة، فلم توضع أي خطة لمحاولة اقتحام الرياض، والإمام ينتظر وصول المدد من الأحساء، ويحث قادة الفرق على احكام الحصار ومنع دخول السلاح والذخيرة والمؤونة للبلدة. لكن الجد لاحظ في ليلة مقمرة، أن المتسللين من جهة الظهرة (التلة) الشمالية يحملون الخفيف والهام، ويلجون به من كوة صغيرة في احدى الدراويز مما يعنى عدم احكام الحصار. مرت الليالي متثاقلة واشتد البرد آخر الليل في العراء، فيلزم المبيت في أخبية بالية لو شبوا فيها النار يخشى أن تشب أطرافها، والعرب تقول عن منتصف العقرب "تحت النجم لا تقرب" فزاد

الضنك على المجاهدين. كان الإمام فيصل لايظهر إلا لماما وعادة بعد العصر، وقال البعض أنه يبيت في منزل بمعكال، فيه خدم وجواري وربما احدى زوجاته. يأتي اليه ذوو حاجات أو مستعطين، وآخرون يرون فيه بركة جمة يحضرون مرضاهم ليرقيهم بتلاوة كلام الله، أو يطبب جراحهم "بأداوي وأعشاب" من عنده، كما يصف لهم حُمية غذائية معينة، أو يرسلهم نحو حجام أو كواء ليمارس ما يقدر عليه من علاج. ولما كاد "الوسمي ينتصف زادت عليهم الرياح الباردة والعجاج، حيث لم تهطل سوى أمطار قليلة، واشهبت الأرض وقل الكلاء وعانى الجد وعماله لتدبير علوفة البهائم.

جاء رجل من سبعان العتش يبحث عن نُزل عشيرته المحاصرة للرياض، وأخبرهم أن لفيف من سبعان الشمال من رماح وحتى البكيرية، قادمون يصحبهم حشد من القحاطين وعدد من مطران الزلفي، يسعون للصلح بين الإمام فيصل والأمير خالد. استبشر الجميع بذلك ورحبوا بهم في مستقرهم شرق وادي الوتر، حيث وجدوا معهم كمية وافرة من العلف، وقد استاقوا قطعان من الماعز والضأن ودواب أخرى كثيرة. دعاهم الإمام إلى مخيمه بعد عصر اليوم التالي ورحب بهم، فأخبره كبارهم أنهم جاءوا في وساطة خير بينه وابن عمه، كما أن المواشي التي معهم هدية لرجال الإمام، والبقية للمحاصرين الجائعين داخل الرياض، وتمنوا عليه أن يقبل اقتراحهم للصلح، لأجل الله ثم بحق أواصر الرحم ولاقتراب شهر رمضان. أبدى الإمام ترحيبه بهم وبوساطتهم، وبين أنه لم يمنع دخول الطعام للبلدة، عملاً بسنة المصطفى الذي لم يجز "لثمامة" أن يمنع الميرة عن عبدة الأصنام، إلا ان المعضلة هي فقد أموال الأغا إسماعيل، أثناء هجومه الغادر على الحوطة، ولم يعد لديهم ما يشترون به المؤونة من الأعراب. ثم تساءل عن كنه المصالحة بينه وابن عمه خالد بن سعود، فقال له أحد كبار مطير اننا نقترح أن تعهدوا إليه بولاية الأمر من بعدكم، وأن يكون معاونكم في إدارة البلاد وينوب عنكم اذا كنتم خارج الرياض. لكن الإمام أشار بيده معترضاً وقال ما ألذي يحدوني لهذا، وقد بايعتني الديار وأعيانها بعد اغتيال والدي، وخالد إنما هو صنيعة المصريين جاءوا بهم ألعوبة في أيديهم، لأنهم يعلمون أن العرب لا ترضى إلا بولاية الصالح من ذرية ابن سعود (محمد) وجعلوه ذريعة لذلك، وهل آمنه وحوله عساكر مصر ان يغتالني كما فعل الأمير مشاري مع خاله؟ قال أحد كبار مطير إن ذرية المؤسس (الإمام محمد بن سعود) قد انقطعت إلا من اثنين من أولاده، أكبرهم عبدالعزيز جالد الأمير خالد، وثانيهم عبدالله جدكم، وقد لا ترون فضل للتنازع بينكما، واذا توافقتم على ان تكون الإمارة بالتناوب بين الفرعين فهذا سيقضى على كل خلاف لاحقا. أما عساكر مصر فهم لا يرون فائدة من بقائهم في فيافي نجد، لكنهم لا يقبلون ان تكون وكر لقطاع الطرق على الحجاج والتجار، واذا اتفقتم على ترتيب ينهي النزاع بين آل سعود، مع تأمين السبل ودفع ثلث الزكاة للباشا الكبير، فلن يكون هناط من داع لبقائهم، وعلى كل حال فأنتم أبخص بما يمكن عمله بعد مغادرتهم. رد عليه الإمام بأن يعرضوا ذلك على

خالد ومن جاءوا به إلى نجد، ويروا ماذا لديهم قبل ان يوافق هو عليه، فاستأذنوه لدخول الرياض وتقديم هداياهم، وعرض وساطتهم على المحاصرين.

لما اقتربوا من الدروازة الشرقية للرياض قال لهم المرافق ان عليهم وضع السلاح، حيث لن يسمح بدخول من يحمل حتى الخفيف منه مثل الفرد أو الخنجر، فاعترض الكثير لأنهم وسطاء خير تصحبهم الأنعام وكمية من الطعام، وتخوف آخرون من غدر العسكر بهم ورفضوا الولوج مسربلين. ظن الجد عبدالله خيراً في القوم ودخل مصاحبا لأكثر من ثلاثين رجل. تلقاهم الأمير خالد بن سعود ببشاشة وحبور وعانقهم فرداً فردا، أما إسماعيل بيه قائد المصريين فكان متجهما، وبقي في أقصى المجلس ويقف عند رأسه طائفة من حرسه المدججين بالسلاح. تعرف الأمير على بعض من شاهدهم في السلامية قبل شهور، واستمع بشغف لما عرضوه عليه وتساءل عن موافقة فيصل على ذلك، فقال أحد كبار السبعان إنه مثلكم لا يريد سفك دماء المسلمين، فسارع بالموافقة عليه شريطة سرعة فك الحصار عنهم. في أثناء ذلك كان بجوار البيه رجال من احدى قبائل العرب، يناجونه ويشرحون ما يقال في المجلس، حيث لم يكن يحسن فهم بعض الكلمات الدارجة، ويتحدث باللكنة المصرية العامة (الشلق) فقط، لذا سارع في الاعتراض قائلا نحن لسنا في مكابدة من حصاركم لنا، وهناك قوات ضخمة في الطريق الينا، وعند وصولها سيقبض خالد أفندي على كل البغاة العاصين لأوامر سيدنا الباشا في القاهرة. عندها حاول أحد القحاطين تهدئة خاطره، وخاطبه على انه حضرة الضابط الموقر، وقال إن الإمام فيصل قد انعقدت له بيعة كافة أهل الديار، وفي أرقابهم عهد الله بالولاء له في المنشط والمكره، وهو سيتنازل للأمير عن جزء من أمره وسينال رضا كافة أهل البلاد، ويجنب الجميع ازهاق أرواح المسلمين وسفك الدماء، ونحن جميعاً كذلك ولا نرضى بقتل بعضنا البعض. زاد غضب البيه وقال نعم نحن مسلمون، لكننا لسنا مثلكم على "الملة الوهابية" بل على مذهب الإمام الأعظم أبو حنيفة، وليس لدينا مبايعات (!) كما تقولون، بل إن الباشا تقلد السلطة وهو من يتصرف في الأحوال بما يراه، وينصب أو يخلع من يشاء وهو ولي نعمة الجميع والأمر له وحده. كاد الجد أن يقول إن ذلك لله وحده سبحانه، لكن البيه لم يتمهل بل سارع بالقول إن على فيصل سرعة الرحيل بعيداً عن الرياض، والكف عن تجميع العصاة حوله لمحاربة من قلده الباشا أمر البلاد. بعد جدال قصير طلب كبير السبعان المغادرة للتشاور مع الإمام، وتنفسوا الصعداء بعد خروجهم من سور الرياض، واعترض أحد كبار مطير على التعجل وتمنى لو استمروا في محاولة اقناع الأمير والبيه بصلح ما، لكن أحد القحاطين رد بالقول إن الأمير لا رأي له ولا دبرة، أما البيه فهو مكابر ولن يتزحزح عن العنجهية، فأنشده أحد الرفاق قائلا

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيه ***** وخطاب من لا يفهم

لما التقوا الإمام بينوا له تفاصيل ما جرى، ولم يندهش مما سمعه وأفادهم ان لديه خبر عن عجز الإثنان عن إدراك الحال، لذا تحدث أحدهم للأمير بشأن اقتراب شهر الصوم الفضيل، وان أهلهم يعانون قلة الغيث وهزال أنعامهم. كما أوشكت مربعانية الشتاء ذات البرد القارس على الدخول، واستأذن في المغادرة عارضاً العودة للقتال في صفه عند أول إشارة منه، فدعا الله للجميع بالسلامة والتوفيق.

وصل الجد ورفاقه للحريق بعد يومين من هلال رمضان، حيث الح عليهم بعض سبعان الحائر الاستراحة لديهم، ثم انحدروا نحو الدلم للتبضع ومعرفة أحوال السوق هناك، في ظل تلك الحالة المرعبة من نزاع آل سعود مع بعضهم. انشغلوا وأهلهم مع الصيام والقيام والتلاوة والذِكر والصدقة والتقرب لخالقهم، مع متابعة أعمال الزرع والضرع والبيع والتقرب للأرحام والجيران. بعد العيد أخذ بعض القرابة يتهيأون للحج، وكان العم زيد أحدهم، ولما شاور والده (عبدالله) وجده (علي بن حمد) رحمهم الله جميعاً، لم يشيروا عليه بذلك حيث أدى فرضه فيما سبق، كما ان السبل موحشة لوجود عساكر مصر في الحجاز، مع ما لديهم من بدع ومنكرات عادت لاحقاً، بعد أن أبطلها الإمام سعود بن عبدالعزيز (أبو شوارب) بل وتفاقمت مساوئها. لكنه أصر على ذلك حيث ان احدى خالاته قد أوكلت ذلك له، حيث جعلته ناظراً على عشرين نخلة أوقفتها قبل وفاتها، وجعلت حاصلها في حجة عنها كل خمس سنوات وأضاحي في أخرى، لذا لم يعرقلوا عزمه رغم ما يعرفونه من المخاطر على أهل نجد في حج تلك السنة. الأنباء لا تصل الحريق إلا متقطعة وعلى تباعد، في مطلع القعدة وردهم خبران أثاروا القلق الشديد، أحدهما أن بضعة آلاف من جنود مصر قد وصلوا ينبع، ثم وصل بعدهم أحد باشوات مصر الكبار يقال له "خورشيد" وهو من أكثر قادة الجند مهارة وحزم. والنباء الثاني ان الشريف "العياشي" قد أرسل أحد أولاده للرياض، فالتقى مع الإمام فيصل خارج أسوار الرياض، وقدم له هدايا ومكاتبات من مصر لا يعلم عن كنهها، وجرت مقولة ومفاهمات مع الأمير خالد، وانتهى الأمر بينهما على هدنة وانسحاب الإمام جنوباً نحو الدلم، على أن يحكم جنوب اليمامة منفرداً، ويكون للأمير خالد وإسماعيل بيه حكم العارض (الرياض) والمحمل والوشم وسدير. جلس الأهل يتداولون الأمر مع بعض الجيران، فقال رجل إن هذه العلوم ليست مؤكدة، وقد بلغه ان خورشيد باشا أخبر الناس أنه جاء للحجاز مأمور من محمد علي الباشا الكبير ووالي مصر، وولاه إمارة الحج تلك السنة، حيث سيقوم بتأمين السبل لرواد الحرمين، وضمان السكينة والراحة للجميع، كما سيوفر الماء والطعام والدواء في المشاعر، ويوزع صدقات الأوقاف على المساكين في جوار الحرم، وأنه لا يزمع التوجه للديار النجدية. تحدث آخر عن أن العياشي من أشراف ينبع، وقد كانت عشيرته (سلالة الزكي!) من أنصار أبو شوارب في الحرب ضد طوسون، وقاتلوا معه في "بدر" وأيدوا دعوة السلف، لكن بعد قدوم محمد علي بنفسه من مصر وسيطرته على مكة والمدينة تغير الحال. حيث وقفوا ضد الإمام عبدالله واستمر عدائهم لآل سعود حتى الوقت الحاضر، ولا يرى إلا أنهم أهل غدر وخيانة،

وليس من الحكمة أن يقبل الإمام نصيحتهم. ورأى آخر ان فيصل لا يحسن التدبير، وسينتهي به الأمر كما جرى في السنة الماضية فيغادر نجد إلى الأحساء. قاطعه الجد علي بعدم لياقة التخوين والغيبة، ونحن لا ندرك سرائر النفوس، بل نثق في حصافة وإقدام الإمام ونسأل الله له التوفيق. رغم تحذير الناس من الذهاب للحج، حيث قد يتعرضون للأذى من ضباط الجنود المصريين، إلا ان العم زيد أصر على السفر لتنفيذ سبالة خالته. بعد أيام من مغادرته جاء نباء من الدلم ان الإمام يبني مساكن له وأهله ورجاله، ويشيد تحصينات في الجهة الشمالية للبلدة، أما الجنوبية فاكتفى ببساتين النخيل الكثيفة لدفع صولة المهاجمين، لكن ما أثار قلق الجماعة في الحريق، هو أنه جهز قافلة ضخمة شحنها بهدايا نفيسة وإبل وخيل أصيلة، وجعل على رأسها أخاه جلوي صغير السن، ووجههم نحو خورشيد باشا لاسترضائه وبيان أنه لا يخرج عن رأيه.

أصابت الحريق في ذلك الشتاء آفات ضارة بالبشر والبهائم والشجر، لكن أفدحها هو الصفار (ربما هيباتايتس وبائي؟) قال البعض أنه جاء مع المصاروة، وانتقل عن طريق مخالطيهم من الخدم إلى العرب. وهو مرض كريه إذا تطور يسبب انتفاخ البطن ثم موت بطيء، ويعالجونه بكي بطن القدم اليسرى فيشفى عدد منهم، وآخرون تبقى لديهم أعراض اصفرار الجلد والهزال لسنوات، قد تنتابهم اثناءها نوبات من الوجع والقيء الدامي. أما قلة المطر وشح المياه فزادت من معاناة أهل الحريق، ولما انكسرت شدة البرد ظهرت ديدان وسوس تتلف براعم الشجر. لم يمكث العم زيد بن عبدالله طويلا في مكة المكرمة بعد الحج، فوصل الحريق مهرولا بعد عاشوراء يحمل أنباء سيئة، حيث أخبرهم ان حجاج الشام قالوا ان والي مصر، لما أحس بهيمنته على جنوب الأناضول، أمر ولده (إبراهيم) أن يتجه شرقا نحو بلاد الكرد، وأن يغزو أرض الجزيرة والموصل ليقطع الطريق بين إسطنبول وبغداد. كما علم أثناء الطريق ان الباشا خورشيد لما وصلته هدايا الإمام فيصل قبلها شاكراً، لكنه أوقف الأمير جلوي بن تركي عنده، وأمره أن يبقى في صحبته للذهاب للرياض سويا. كما أنه طلب من قبائل الحجاز تزويده بعدد كبير من الركائب والمؤونة، وتوجه برفقة آلاف من الجنود نحو القصيم، ولا يبدو أنه يضمر إلا الشر للعرب. في الشهر التالي جاءهم رجل من سبعان المحمدي، يستحث أهل الفرع للنفرة سريعا نحو عنيزة (قاعدة القصيم آنذاك) وأفادهم ان أهل الأفلاج ورماح سيتوجهون إلى هناك. وإن أهل بريدة والرس وبقية بلدات القصيم قد عقدوا العزم أيضاً لصد الباشا، كان الجد (الأكبر) على بن حمد متحسساً من نباتات الربيع، وولده الجد عبدالله عليه أعباء متابعة شؤون الأسرة والأعمال، لذا وافق على طلب العم زيد للتوجه مع بقية العشيرة، للمشاركة في الدفاع عن "الدين والديار" من عدوان البغاة أهل "البدع والمنكرات" ولم يصلوا هناك إلا بعد أن وافتهم أنباء دخول خورشيد باشا للحناكية، وهي بلدة شرق المدينة المنورة تقع على درب زبيدة، الذي بنته الشريفة الهاشمية زوجة هارون الرشيد وأم ولده الثاني "الأمين" الخليفة العباسي، وزودت ذلك الطريق بأماكن للاستراحة وسقيا المسافرين ودوابهم، في كل مراحل

السفر من الكوفة حتى المدينة، فازدهرت الحناكية ثم غدت محطة للمسافرين بين وسط جزيرة العرب وغربها. فور وصولهم عنيزة باشروا تدبير مسكن لهم في حي الجناح، وقام العمال بترتيب الأثاث والمتاع، وأبى عليهم سبعان البلدة الإنفاق مما معهم من مال، ووفروا لهم المزيد من السلاح والذخيرة، ثم أولموا لهم عشاء حضره حشد من آل سُليم وزامل والفضل والجمل وغيرهم، ورجال من بقية أهل عنيزة من قحطان وتميم والخوالد. تجول العم زيد في أرجاء عنيزة وشاهد ما تحفل به البلدة من حلقات العلم والتدريس، كما ان سوقها عامر وهو قاعدة تجارة القصيم، وأعجبته حوانيت الوراقين التي تضم عدد من الكتب والمخطوطات، وهي وإن كانت أوفر مما في بلدته (الحريق) أو حتى في الدلم، إلا انها لا تضاهي ما في مكة المكرمة. باشر مع الرفاق العمل في تعزيز سور البلدة، وإقامة تحصينات ومحاجي لعرقلة دخول أحد من عساكر البغاة للمدينة. بعد أيام وردهم نباء كريه عن أن طلائع قوات الباشا لما شارفت قرب الرس، خرج زعمائها وقابلوا ضابطها وطلبوا لقاء كبيرهم للمصالحة، واتفقوا على دفع مقدار من الفضة والطعام لهم، وان لا يعترضوا طريقهم ولا يعاونوا أحد عليهم ولا يؤووا محدث، على أن ينصرفوا عن بلدتهم في سلام، تاركين ثلة من عساكر الباشا في خارجها للمراقبة. في الجمعة التالية تصالحت بريدة على نفس المنوال، وجلس العم زيد مع بعض القرابة وسبعان عنيزة، يتداولون الأمر وما آل إليه الحال في الجوار، واقترح البعض ان يعمدوا لمثل ذلك ابتغاء السلامة وعدم الشذوذ عن البقية. كاد العم زيد يتحدث رغم حداثة سنه، إلا ان عمه وثلاثة من أبناء عم والده بادروا بالحديث بما أثلج صدره، حيث قالوا إنا لدينا الرجال والمال والسلاح والذخيرة، وقبل ذلك ثقة في خالقنا الذي لا يرضيه ان نذل للطغاة، الذين يريدون نشر الفساد في ديارنا. وبعد مداولات طويلة استقر الأمر على عدم جواز الخروج للباشا في صغار، طالبين الأمان منه بل نبقى في بلدتنا وداخل دورنا ولا نتعرض له بخير أو شر، ونحن لسنا على طريقه للعارض ولا نؤذيه، فإن مر ساكناً فهذا شأنه وإن أبى علينا إلا الإهانة قمنا ضده. جاءهم بعض أهل القصيم ناصحين بتلافي غضب الباشا، حيث يبطش بقسوة بكل من يعارض نفوذه، ولما وجودوا الإباء والشيمة والعزيمة من السبعان، قال أحدهم وهم يغادرون {انكم تظنون ان حصونكم مانعتكم من مدافع الباشا} فرد عليه كبير آل زامل {أجعلتم المخلوق نداً للخالق؟} وانصرف القوم لتعزيز السواتر. علموا ان خورشيد قد ترك أثقاله وغالبية جنوده في الرس، وتوجه مع فرقة من حرسه وخدمه تلبية لدعوة بعض أهل بريدة، وقال أحد آل خثلان إن الباشا ما زال يذكر ما لقيه إبراهيم باشا، قبل عشرين سنة في الرس وعنيزة.

وصلهم ضحى ذات يوم ضابط مصري معه طائفة من العسكر، وتحدث مع كبار أهل البلدة، وفهم العم زيد أنهم لم يرضوا بالخنوع لرغبة الباشا، لكنهم لن يتعرضوا له بأذى ولن يعاونوا مناوئيه، فرد عليهم ان ذلك يعني أنهم أهل غدر وخيانة. عند بزوغ أول شعاع للشمس شاهدوا جموع زاحفة نحوهم، تصحبهم فرق الطبول والمزامير والرايات

الحمراء، ومن الخلف مجموعة من البغال تجر المدافع على عجل. اصطفت عساكر العدو بعيداً عن الجهتين الشرقية والجنوبية لحائط البلدة، وأخذوا يمهدون الأرض بالمعاول ويشيدون الخيام، كما نصبوا المدافع ورتبوا جوارها أوعية ملح البارود، وعدد كبير من مكورات القذائف المعدنية والحصى. ابعدوا الدواب وأقاموا جرابات وأوعية من جلد ترتكز جوانبها على قضبان معدنية وملأوها بالمياه. الخدم المرافقين لهم باشروا في إقامة سواتر من الحجارة، التي عملت البغال على نقلها من الشعبان القريبة وحتى وادي الرمة الجاف بالكلية. لما حل الظلام تسلل للبلدة رجلان ادعيا أنهما جاءوا للخير، وان الباشا لم يعجبه أن تسلم له بلدات القصيم كلها، وانه يريد ان يجعل واحدة على الأقل ركام، لتبقى خاوية على عروشها وتكون عبرة لمن أمامه في الوشم واليمامة، حيث إنه الآن ما يزال قريب من قاعدته الخلفية في الحناكية، وغير بعيد كثيراً عن قاعدته الأساس في ينبع. ونصحوهم بالمصالحة معه، حيث شر الناس من جُعِل عبرة للغير، وعليهم تلافي إيقاع ضرر جسيم على عنيزة وأهلها، لكنهم لم يجيبوهم بغير ما سبق قوله وان أمر الله قدراً مقدورا. في ضحى اليوم التالي تزايدت حركة العسكر جنوب سور البلدة، وفجاءة بدأت المدافع ترمي الشرر والقذائف المعدنية، لكن معظمها كان يطيش بعيداً ثم يعدلون نصب المدافع، حتى تدك الحائط أو البنايات داخله لكنهم واجهوا صعوبة في التصويب، وقبل العصر توقفت محاولات الرماية الفاشلة. عند المساء جلس أفراد الجماعة يتسامرون، وقال العم زيد ما رأيته نهار اليوم يؤكد مقولة "نصف الحرب دهولة" فرد عليه أحد الأعمام سائلا الله السلامة من النصف الثاني. في اليوم التالي باشر البغاة الرماية المكثفة بالبنادق، مما اضطر المجاهدين خارج السور للتقهقر والدخول للبلدة وغلق البوابات، ولما خلت الساحة توقفت قذائف المدافع. وتقدم مشاة من العسكر عليهم دروع صفيقة لا تكاد تقيهم الرماية من على بعد، وفي أيدي بعضهم معاول باشروا ضرب البوابة الخشبية بها، لكن بدا أنها ذات فاعلية ضعيفة. سارع العم زيد بالصعود أعلى برج فوق احدى البوابات الجنوبية، يرافقه اثنان من العمال يحمل كل واحد منهما بندقية، وفي يد أحدهما غرارة (كيس من ليف وقماش) بها ملح البارود وحبيبات الرصاص، والآخر معه مزودة فيها جرة ماء وطعام جاف من تمر وإقط. أما هو فقد وضع على كتفه بندقية احتياط وفي يده بندقيته الخاصة، وعلى ظهره جراب به ادواته الضرورية، حيث انتصب في الأعلى عند فتحات سفلية تطل على بوابة المدخل، ومنها أخذ يقنص عسكر العدو لصد محاولتهم تحطيم المدخل والنفاذ للداخل. كان يرحمه الله ماهر في التصويب، وقد سماه البعض "بواردي" لدقة اصابته للهدف ببارودته، كما انه سريع الإطلاق حيث يناول العامل البندقية فور الرماية، ليقوم بتلقيمها بالقمع، وفي أثناء ذلك يتناول من العامل الثاني البندقية المجهزة للإطلاق، وفي حال تعطل احداهن يستخدم البندقية الاحتياط. بقية المجاهدين بجواره كانوا يرمون البغاة في الأسفل باحتراف، وأحدهم جاءه من بيته قدر ملئ بالزيت الساخن، وسكبوه على العسكر فالتصق بثيابهم وأحرق جلد البعض، فولوا هاربين ورصاص المجاهدين في ساقتهم. لما رأى ضباط العدو الخيبة أوقفوا

الهجوم، واستغل العم تلك الفرصة وارسل أحد العمال للمنزل، فأحضر أبسطة رقيقة بالية (زوالي أو سجاد أو زرابي) فعمل منهل مظلة، ترتكز على عصي وحجارة فوق حائط سترة السطح. جلسوا في الظل هربأًمن حرارة شمس الجوزاء، التي أوشكت أن تتعامد على المدار الشمالي، مما ذكره بما رواه له جده علي عن معركة السلامية قبل عشرة شهور، لكن عنيزة تقع شمال الحوطة بعدة مراحل، وهوائها ألطف لذا فالحر أقل ضراوة فيها، وسألوا الله أن يقيهم نار جهنم التي هي أشد حراً.

ربعهم من سبعان عنيزة أسبغوا عليهم من الكرم، فيجيئهم الماء البارد (نسبياً!) والقهوة والطعام، وكذلك كمية وافرة من الذخيرة والعتاد والسلاح الجيد. بعد العصر تغير شكل صفوف العساكر، واقتربت المدافع الكبيرة من سور البلدة، والنباء الكريه هو ان الباشا قد انزعج من فشل قادة جنده، وقد غادر بريدة جنوباً ويبدو أنه متوجه للمقر الخلفي لكتائبه، ليتولى بنفسه تشديد الضربات على البلدة الوادعة، وأهلها الذين لم يتعرضوا له بأي أذى. هدرت قذائف المدفعية بكثافة عديدة وقنابل ثقيلة، لم تعد مسلطة على السور الخارجي للبلدة، بل أخذت تتساقط على البيوت الطينية والحجرية بداخلها، فشبت النيران في بعضها وفي عسيب النخل، كما خرت بعض الأسقف على من بداخل الدور من النساء والصغار والضعفاء، وتعالت ألسنة من الدخان بلون الرماد من بعض أرجاء المدينة، وانتشر العويل والبكاء في الطرقات، وفر البعض نحو المساجد يلتجئون لخالقهم ويسألونه اللطف فيما قدر. بعد لحظات شاهد العم أحد أجزاء سور البلدة الغربي، وقد أصيب أعلاه بقذيفة مباشرة أدت إلى تهاوي بعض أجزائه، وسقط المجاهدون الرابضين فوقه وجرح أكثرهم، بينما تطايرت أشلاء اثنان منهم يحسبون شهداء. عندها استدعاهم بعض بني ثور من أعيان عنيزة فنزلوا، ولاحظ العم أنهم يحدقون في المجاهدين ويتهامسون بينهم، ثم أشاروا على عدد منهم للتوجه نحو أحد القصور، وهناك التقى مع نحو خمسين من المقاتلين، لاحظ أنهم جميعاً من ذوي الفتوة والنباهة. تحدث أحد قصمان عنيزة بعد الضيافة، عن أن الوضع الحالي خطير للغاية وسألهم الرأي حول ما يجب عمله، قال رجل بسيط أن لا طاقة لنا اليوم بخورشيد وجنوده" وعلينا أن نقبل ما قبله جيراننا، وعلل ذلك ان بقائهم داخل البلدة في بيوت الطين خطر، حيث سيكونون مثل الجرذان في الجحور الترابية، ينتظرون دخول الغزاة عليهم وقتلهم فرداً فردا، ثم سارع أحد جماعته بالردعليه بأن أحد الجنود المصيين الشرفاء تسلل من بين صفوف العسكر، وصلى معهم الفجر وأفادهم ان المدافع الأمامية خفيفة يمكن أن يجر كل منها ثمانية رجال، لكن المشكلة ان كل منها مربوط فيه اثنان من العسكر بسلاسل، وهو مستعد للتعاون معهم وكذلك بعض رفاقه هناك، واذا خرجوا في سكون بعد منتصف الليل فربما يستطيعون ادخال عدد منها للبلدة، ويرمون بها عساكر الباشا اذا توفرت لهم القذائف. شجعهم على ذلك أحد سبعان الدلم، بالقول أنه ذهب للحوطة قبل شهرين مع خاله، وعرف كيفية الرماية بالمدفع وتشغيله. أثنى الرجال على الخطة مع تأكيد الجميع ان هذه عملية خطرة بل وفداوية، وعليهم الحذر من

الإفصاح عن ذلك حتى للأقارب، حيث تعج عنيزة بأخلاط من البشر لا تعرف نوايا بعضهم، وعليهم أن يركنوا للراحة حتى يوقظوهم عند منتصف الليل. شعر العم بالقلق فلم تكن له خبرة بفنون القتال هذه، وقد أجاد الرماية منذ صغره على ثيران الوعول والظباء، ثم تحسنت مهارته وغدا يجيد التصويب من بعد حتى على الأرانب ثم الطيور، أما المصارعة والالتحام بالسكاكين مع البشر في ظلمة الليل فذاك أمر لم يتقنه بعد.

بينما هو يقلب الفكر إذ جاء أحد الخدم يدعوه للتوجه عاجلاً للقاء عمه، الذي أمره أن يتجهز لمرافقة حشد من الناس، يغادرون البلدة من البوابة الشمالية الشرقية، فاعتذر منه أنه متعب مما لقيه في سحابة نهاره ذاك وسأله أن يعفيه من الخروج، فقد كان تواقاً للمشاركة في الهجوم على جنود الغزو، وسلب مدافع منهم للاستعانة بها في الدفاع عن الدين والديار. إلا ان عمه لم يقبل عذره وأفاده ان مشاركته في الخروج مع الناس والعودة قبل الفجر عمل هام لصالح البلدة وأهلها، والوقت متسع للمشاركة في الجهاد لاحقا، ولم يتمكن من اخباره عن تفاصيل ما يزمعون القيام به في تلك الليلة. في أثناء ذلك دخل عليهم أحد أبناء عم أبيه، الذي كان من المشاركين معهم في خطة الهجوم، ولما سمع الحوار وفهم القصد أشار عليه بوجوب الخروج مع المغادرين للبلدة، فهذا أنسب ما يمكن أن يقوم به للمساعدة في الجهاد. صلى المغرب عند الدروازة حيث احتشد نفر غفير من أهل عنيزة، ورأى الرجال يودعون أطفالهم ونسوتهم والضعفاء، وتعرف عليه مسلح من وداعين الدواسر، وفهم منه أنهم قد اختاروه لصغر سنه وحدة بصره ولهجة أهل اليمامة. وسيمشون مع بعض المغادرين لعدة أماكن بعيداً عن الحرب، ثم سيرافقون إحدى الجماعات المتجهة لبريدة، وسيكون الحرس والخدم خلفهم على مبعدة، وبينما تجرى ترتيبات المسيرة شاهد قافلة قادمة من الغرب. تعرف عليهم الودعاني وتبين أنهم من عرينات البكيرية، جاءوا متخفين يحملون إمداد من ذخيرة وطعام لجماعتهم سبعان عنيزة، وقد حذروا أن في الطريق عسكر الباشا يفتشون، لكن خيلهم المغربية لا تقدر على السير بهمة في حصى الرمة أو رمال النفود. تعرف العم أثناء مخالطته حجاج مصر في المشاعر، أنهم يسمون كافة البلاد الواقعة غرب القاهرة "المغرب" سواء في سيوة أو بني غازي أو "اللوبيك" والقيروان ومراكش ونوق الشط (أي ليبيا حتى موريتانيا) وخيلهم ثقيلة مثل المغولية. لذا نصحوهم بالتوجه شرق عروق الرمال ثم الانحراف شمالا لتلافي مجابهتهم، وانطلق العم مع قائدهم الذي كان معه فنارتين، علق احداهما على يمين سرج حصانه والثانية على اليسار، وأمر الجميع بالمسير في سكون خلفه، ونبه العم أن يبقى في مقدمة حشد النسوة والضعفاء، على بعد مائتي خطوة منه. وان يفطن للفنارة فاذا خفت ضوء اليسرى فعليه الاتجاه يميناً والعكس، أما اذا خفت ضوء كلاهما فعليهم التوقف، ثم شدد عليه التنبه والحرص فسلامة هؤلاء في ذمتهم، والجميع يعلم أنهم يحملون نفائس ومصاغ يثير الطمع. انطلقوا وهم يحوقلون ويستغفرون سائلين الله السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، وشعر العم أن الأمانة عظيمة والنجاح فيها قد يعادل ما فاته، من المشاركة في الهجوم

على المربوطين في المدافع. وبينما هو يتابع إشارات الفنارة لاحظ انطفاء كلتاهما، فامر من خلفه بالتوقف حتى عاد اليهم الدوسري مبشراً بسلامة الله لهم، وصحبهم صوب الشمال الغربي حيث شاهد نار طفيفة، ولما وصلوها رحب بهم رجل ناداه أنه "أبو شماس" فوجدوا عماله قد أعدوا شيء يسير من الطعام، لكن الرفاق كانوا في غاية التعب والعطش، علِم أنهم رتبوا فصل أولئك الهاربين من أتون الحرب، إلى ثلاث فرق تتجه واحدة شمال غرب صوب بريدة، وأخرى شمال شرق نحو نخيل آل شماس، والثالثة شرقاً باتجاه ضواحي لغاط الغربية كل نحو عشيرته. كانت دوابهم ضعيفة معظمها حمير وبغال، وقليل منها هوادج للنساء على الجمال، والرفاق الذين انفصلوا عنهم باكراً ذهبوا نحو مرخ والثويرات، أما الأوائل فكانوا ذاهبين جنوباً نحو المذنب بعيداً عن عساكر الباشا، الذين يجوبون المنطقة بين عنيزة والرس والبكيرية وبريدة. سأله أحد الشماسية إذا يرغب التوجه معهم، لكنه طلب أن "يرخصوا له" أن يعود لجماعته في عنيزة مع خادمه، فسألوا الله لهم السلامة وأرشدوهم إلى الاتجاه الصحيح، بأن يجعلوا نجم السماء الشمالي خلفهم، والرمال على يمينهم لا يدخلونها ويتربصون لزول ورائحة نخيل عنيزة. مع أول خيوط الفجر شعروا برطوبة الزراعات، فانحرفوا تجاهها ودخلوا البلدة قبل شروق الشمس، حيث أخلد العم زيد للنوم بعد ليلة مظلمة حارة، تساورهم فيها مخاوف من عسس العدو، مع عواء الذئاب والضباع الكاسرة. كان نومه غير مريح بل في قلق، وتراوده أفكار عن سطوة رفاقه على مقدمة العدو، ليغنموا مدافع يستعينون بها في صد العدو الصائل ضدهم، وبعد ساعات وهو فيما يشبه "خبال النوم" سمع فرقعة المدافع، وتوهم أنه ورفاقه قد جلبوا القذائف يدكون بها صفوف البغاة، ثم وهو بين "صحوة وغفلة" سمع صياح أحد الخدم، الذي نبهه لسرعة النهوض ومغادرة البناية التي تعرضت لمقذوف سبب اشتعال النيران في جانبها.

هرول مسرعاً للخروج لكنه في أحد المصابيح الداخلية في الفناء، سمع انفجار قوي في السقف وتبين اصابته بقذيفة مباشرة، فبدأت الأتربة تتهاوى منه واعقبها تساقط العوارض الخشبية، وأثناء ركضه نحو المخرج شعر بضربة قوية على كتفه الأيسر، فسقط على الأرض واستمر يزحف على بطنه، لكنه فقد الوعي بعد أن تلقى لطمة جارحة على مؤخرة رأسه. بعد العصر استيقظ يعاني من أوجاع مبرحة، ولا يكاد يدرك ما يدور حوله لبضع لحظات، واطمأنت نفسه لما رأى عمه بجواره يشد على يده بحرارة، ثم طلب شخص معهم منه أن ينقلب على بطنه، فوجد صعوبة في تحريك جنبه الأيسر لوجود أربطة، فعاونوه على الانقلاب تجاه شقه الآخر. شعر بأصابع تتلمس خلف أذنه مع سكب سائل لزج حار، مع دلك لأسفل رقبته حتى أعلى فروة رأسه، ورفضوا أن يقدموا له الماء حتى ينتهوا مما يقومون به. ثم شعر بصوت عمه يحمد الله على نجاته ويقبل رأسه، ويقول له إن ترقوته سليمة من الكسر لكن بها رضوض، وعليه تفادي تحريك الضمادات لبضعة أيام. كما أن شكهم عن وجود كسر في عظم الرأس قد زال، وتبينت سلامة نخاعه بفضل الله من أي إصابة، ولما استقر

على جنبه الأيمن شاهد قرابته ورجلان بدا له انهم يعالجون جراحه، وسقوه شراب مر في إناء به أعشاب ذات رائحة نفاذة. لما أذن المغرب انصرف الجميع وبقي عنده غلام من خدم الجد علي، فشرح له ان سقف ذلك المنزل قد أصابته قذيفة مباشرة، فتهاوت أجزاء منه لم تبنى بطريقة جيدة، حيث عوارض السقف ليست من الأثل المتين، بل صفوا جوارها حطب وجذوع نخل متليفة، وأثناء ركضه سقطت كتلة من "طمام" السقف وأصابه حجر وقطعة خشي بجراح، وطمأنه ان الجميع متفقون على ان اصابته سطحية ولا خطر منها، فحمد الله على كل حال ونام ليلته في كدر وأوجاع سائلا ربه العافية.

عند الفجر جاءه المداوي وسقاه شراب مفتر ومسكن للآلام، فغط في نوم عميق حتى الضحى، لم يسمع أثناءه تراشق بالرصاص أو قذائف المدافع. ولما جاءه الخادم بالطعام بشره بإتمام مصالحة مع الباشا، لكن ذلك لم يسره فقد كان يتمنى النصر على البغاة ودحر عدوانهم. ثم تذكر قوله تعالى "وإن جنحوا للسلم فأجنح لها" كما أن أمره سبحانه "قدراً مقدورا" وسأله الرشاد والعافية، وشده مزيد من الحنين لبقية أهله وبلدته الطيبة. لما عاده عمه وبعض جماعتهم، سمعهم يتحاورون في شأن خورشيد، وأنه سيرسل بعض قادة الجند وضباط العسكر إلى داخل عنيزة، لتفقد أحوالها وترتيب دخوله لها، وقبض ما فرضه عليهم من "مصادرة وغرامة" وتسوية طرقات البلدة ومبانيها. رغم شعوره بغصة من جراء ما حدث لهم، فقد شعر آنذاك بالهمة تسري في ارجاء بدنه، وتمنى لو يهب قائما ليشارك في الصلاة ودفن شهداء أهل التوحيد، لكن الحركة تؤلم كتفه الأيسر والصداع في رأسه مستمر، وان كان بقدر يقل كثيرا عما سلف. بعد يومين أمر اثنان من العمال ان يعاونوه للذهاب للجامع، رغم نصيحة الطبيب بلزوم السكون في البيت، فدخلوا من الباب الشرقي وجلسوا بعيدا عن المحراب، وفجاءة اضطرب حال الناس لما دخلت كتيبة من العسكر مدججة بالسلاح، وأمروا المصلين والجالسين في الصفوف الثلاثة الأولى بالتقهقر للخلف وحلوا مكانهم، فغدت الجهة اليمنى مكسوة بألوان زاهية للباس المسلحين، والجهة اليسرى فيها العرب بعمائمهم وعباءاتهم المخططة (بجاد) بلا سلاح. لما حدث اضطراب وجلبة في المقدمة وقف أحد العمال، وأخذ يحدق ويستشرف الحال هناك من على مبعدة، ثم قال لهم أن نحو عشرة من العسكر الذين يعتمرون قبعات عليها الريش، قد دخلوا من باب المحراب ثم تبعهم رجل يظنه الباشا، وتبعهم ثلة أخرى اتجهوا صوب الطرف الشمالي. باشر بعضهم في الصلاة وبقي آخرون يتطلعون نحو الخلف والجهة اليسرى، بينما بعض القصمان يحملون العصي ويأمرون الناس بالجلوس في سكينة، ثم جاء رجل عليه جبة زرقاء وطربوش أحمر وعمامة بيضاء، وقد تأبط مصحف عريض مجلد وجلس بين يدي الباشا وظهره للقبلة، وتلا بعض آيات بصوت جهوري، لكن العم لم يتبينها لبعد المكان وأزيز في أذنه من الإصابة. دخل خطيب الجامع وبعد انقضاء الصلاة أمروا العامة بالانصراف عاجلا، بينما بقي البعض في الصفوف الأخيرة والجهة اليسرى، وخلافاً

لما كان متوقع لاحظ العم ان الباشا لم يغادر من باب المحراب، بل نكص وتوجه نحو الباب الشرقي بصحبة لفيف من حرسه، ويرافقه عدد من أعيان عنيزة وآخرون لم يتعرف عليهم. كان الباشا يسير في تؤدة ووقار لا يكثر الالتفات، وبدا ذو طول فارع تبين أنه بسبب حذاءه ذو الحشوة العالية، ولما مر قربهم نهض الجميع في سكون، ورمق العم بطرف عينه لما رآه جالساً في ضمادته، ولما خرج من الباب حدثت قرقعة سلاح وضوضاء لتأخر جلب الركائب من الجهة الأخرى.

بعد العصر كان في المجلس جمع من سبعان الحريق والدلم، ومن بني ثور والعرينات مع أناس من أهل القصيم والوشم وقحاطين سدير، فلما أحس العم زيد بانتعاش حاله قرر الاستئناس بالقعود معهم. دار الحديث حول أمور شتى لكنه كان ما يزال يتطلع لمعرفة ذلك الفتى العربي على يسار الباشا، الذي يبدو ذو حظوة ومكانة بين القوم رغم صغر سنه، إلا انه مع قلة شعر وجهه وبساطة هندامه، لكن علامات النبوغ والحزم والصلابة بدت واضحة على محياه. رغم بغضه لكثرة السؤال فقد تزايد شغفه مما دفعه ان يستفسر عن كنهه، فرد عليه أحد آل خثلان مستنكراً عدم معرفته بصاحب الغار، الذي طالما يحوم في نواحيه بحثاً عن الطرائد في جنبات طويق، فعرف انه جلوي بن تركي أحد الأخوة الصغار للإمام فيصل. قال أحد الحاضرين ان اسمه لما ولد كان محمد، إلا انه لما بداء أولى خطواته صار البعض يناديه جلوي، لولادته أثناء جلاء أبيه عن عاصمة امارته، ثم التصقت به الصفة حتى غدا يكنى بها، ولم يعد يعرف باسمه وانما بلقبه. شكك البعض في ذلك وقالوا انهم لما زاروا الإمام تركي، قال انه قد سماه جلوي تيمناً بانقشاع غمة الشتات عن أسرته، كما قالوا ان أحد اخوته الكبار كان اسمه محمد لكنه توفي قبل ان يبلغ العاشرة. استمر الحديث عن الأمير فقال أحد القصمان ان الباشا قد استبقاه عنده، ريثما ينظر في الرد على رسالة الإمام التي جاء بها، فرد آخر بل هو محبوس حتى يفاوض الباشا عليه الإمام، ورد آخر بأن خورشد كان على علاقة مع بعض من آل مقرن، الذين نقلوا لمصر أسرى بعد سقوط الدرعية، وكان يعجبه سمتهم وعزة أنفسهم وحسن تدبيرهم، وهو من الأوروبيون المسلمون المحتقرين للعرب عادة. تحدث البعض عن سمات الباشا وحُسن ركوعه وسجوده رغم لباسه الضيق، وأشادوا بإشاراته الوقورة لأعوانه، فقال أحد من أسروا في مصر عشر سنين، انهم هناك يرون أهمية صلاة الجمعة ويحرصون عليها، ولا يبالون بباقي الفروض وبخاصة العصر، وذلك من بقايا الممارسات الفاطمية المتشيعة. وقد حثني ذلك أن أخبر أبي بأن أحد الزملاء أثناء الدراسة في مصر، لما رآني أصلي الظهر استنكر ذلك قائلا "إيه يا خويه إنته بتصلي كل يوم" فرددت عليه بالقول "نعم خمس مرات" فشكاني لمشرف الفصل. الذي كان أستاذ الرياضيات "موسى مكسيموس" ذو العلم الغزير والخلق الرفيع، فنظر إلي مبتسما ورد عليه "ما لكش دعوى بيه ده ابن ناس" فذهب لمحمد شكري مدرس "الثقافة!" ومندوب الاتحاد الاشتراكي الكريه، لكن المجال لا يتسع في سيرة أبي وأسلافه رحمهم الله، لأن اسرد

لكم العبر من سيرتي الذاتية، فما زلت أعمل على مسودتها الأولى، لكن انشغالي في طلب مرضاته وطلب المعيشة وطلب العلم، يستغرق جل وقتي وقد جاوزت السبعين. نعود الان لمكان وزمان آخرين (عنيزة 1254هـ) حيث المجلس يتداول ملاحظات على الباشا وعساكره، أبدى البعض الاعجاب بتصرفاته حيث "القول الرصين والفعل الرزين" كما تحدث آخرون عن تشكيلة ضباطه، فمعظمهم من الألبان والبشناق وقليل من المغاربة والأشوام والأكراد. أما العساكر فغالبيتهم من شمال مصر (فلاحين) أو من أعلاها (صعايدة) أو من سودان مصر (النوبة) وقليل من بدوها، سكان الصحراء الغربية حيث بعض الواحات ومياه جوفية، من بقايا مجرى النيل قبل أن يدخل حقبة الجفاف ثم عاد الفيضان لكن النهر غير الله مجراه شرقاً. قال جالس معهم انهم معجبون بالباشا الزنديق لمظهره الثري، ولباسه "المزركش والموشى" لكن آخر رد عليه بأن تصرفاته تدل على قدر من "السمت والوقار" وعدم التعجل في اصدار الأوامر.

قبل انقضاء الجلسة استشرف أحد القصمان نحو الصدر، ورفع صوته بالقول انكم يا أهل عنيزة قد أسأتم لأنفسكم وبلدتكم، بالتعرض لعساكر الباشا وهذا ما جنته عليكم إساءة تدبيركم، ولو سكنتم مثل بقية البلدات ما حل عليكم القتل والدمار. فرد عليه رجل يقال له "أبو سحيم" بتبرير تصرفهم وإباءهم، لكنه لم يدعه يكمل فقال "ذاك جزاءكم وغْبِرّ على قرونك يالثور" فاستشاط البعض عليه وسألوه من أين هو فرد أنه من بريدة، فأنكره أحدهم قائلا بل أنت من مواليها وكاد يبطش به، لولا ان سحبه رفاقه للخارج وولوا على أعقابهم مدبرين. تباحث آل خثلان حول ترتيب درب عودتهم للحريق، واستقروا على وجوب التريث حتى يغادر الباشا شرقا بجنوب نحو الوشم، ثم تبين لهم مباشرته في بناء حصن وقصر داخل عنيزة، ثم تباينت الأنباء عن رغبته البقاء في بساتينها حتى تنقضي شدة الحر، وقيل إنه خاف من الغدر به وطعن ظهره قبل أن يصعد طويق، وروجت أخبار عن نقص في عتاده وماله وهو ينتظر المدد، وقال آخرون إنه ينوي الزواج بفتاة من المدينة. أخبرهم العم زيد أنه يشعر بتحسن كبير في بدنه، بفضل الله ثم ما لقيه من طبابة وعلاج، وأيد القائلين بالعودة لبلدتهم إذا سمح لهم أهل عنيزة بذلك، وبعض الرفاق أشادوا بقرب نضج ثمار الحريق، ويشتهون العودة لديارهم وأهلهم ويدركوا العنب والتين والرُطب والرمان.

لما وصلوا بلدتهم توجه كل منهم لمنزله، يتحاشى اللقاء مع العامة حيث تثار أسئلة عديدة حول النجاح والفشل، وتفاصيل ما جرى في ساحة الوغى عند ساعة البأس، فقد تبين أن الأنباء كانت ترد من القصيم للحريق بشكل متواتر، مع بعض الاضطراب والتهويل في الوصف. وحاول العم زيد إخفاء ما لحقه من إصابة، لكن الخبر بلغ والدته قبل وصوله بجمعتين، فوجدها في قلق شديد عليه وباشرت فور رؤيته تتلمس رأسه وذراعيه لتطمئن على سلامته. أما والده فقد حمد الله أن انجاه من المكروه، ودعاه سبحانه أن يجعل ذلك جهاد خالص لوجهه، وأمره بالاستعداد خلال أيام لزفافه، وبدء مرحلة الاعتماد على الله ثم على الذات، وبناء أسرة صالحة في بيت عامر مجاور.

أقيمت وليمة زفاف مبسطة في بستان الجد علي بن حمد، حيث تناول الرجال طعام العشي بعد العصر وجلس القرابة حتى بعد المغرب، يتناولون القهوة ويتبادلون الحديث حول ما يجري في القصيم. كان الكثير في وجل عما يزمع الباشا القيام به، بعد أن تصله الإمدادات من مصر، وتنكسر حرارة القيظ في وسط جزيرة العرب، وفي تلك الأثناء كانت النسوة في شغل عن أمور الحرب. ثم علت أصوات دق الدفوف من بعض الجواري، ورفع الصوت بذكر الله والصلاة والسلام على نبيه، بينما العم زيد يركز ذهنه على ما يدور حوله وما يلقاه من حفاوة الجميع، حيث أجلسوه في صدر المجلس وباشروا ضيافته قبل الكبار، بما في ذلك والده وجده وشيوخ أسرته وأهل البلدة، الذين احتشد عدد غفير منهم للتهنئة بالزفاف والدعاء بالتوفيق للعروسين. بعد ذلك جاء والد الزوجة ومحارمها واصطحبوا العم زيد إلى مكان النساء، ثم أدخلوه عند عروسه وتركوا عنده بعض قرابتها والخدم، لفترة قصيرة وغادروا بعدها يدعون الله لهما بالتوفيق، بينما بقيت اثنتان من الخادمات لملاطفة الزوجين، الذين لم يرى أحد منهما الآخر قبل تلك اللحظات المضطربة، وتحادثوا جميعا بود لإزالة الوحشة وبث الطمأنينة، وكان العم زيد يحمل صرة من الدراهم، ينفح منها العمال والعاملات المخلصين. وبعد يومين سارع لمباشرة العمل في رعاية الأنعام والزرع، وكان موسم النخيل دون المتوسط، لكن فيه البركة حيث لم تتأثر الحريق كثيراً بقلة مطر الربيع، مقارنة مع ما أصاب بعض بلدات سدير والمحمل، فإن تلال طويق المحيطة بالفُرع تغذى آبار الحريق بكميات من المياه، وإن كانت يسيرة إلا أنها تسد اللزوم، وبخاصة أن السحب منها يتم بالدواب وبكميات طفيفة.

راودت العم زيد أفكار شد الرحال خارج البلاد، لطلب الكسب الشريف والمشروع في أماكن بعيدة، يستفيد فيها من معارفه وخبراته، التي حصل عليها من عمله مع أفراد أسرته وبقية أهل بلدته. في ظل عزوف والده عن السفر للخارج، خلافا لجده الذي كان يترحل لأماكن بعيدة للتجارة أكثر من مرة في نفس السنة، وتحصل من ذلك على مكاسب جيدة، تفوق ما يحدث في بعض الأوقات من خسائر، لذا فقد رأى من اللائق التشاور معه. إلا أنه جابهه بالتحذير من مغبة السفر، حيث تكثر مخاطر فقد المال والأرواح في البلاد البعيدة، كما نبهه إلى ان وجود عساكر خورشيد ولصوصه يفاقم حوادث السلب في الطرق، وزاد على ذلك أنه "ذو عِرْسً حديث" وقد اقترب شهر رمضان، ولا ينبغي له أن يتغيب عن أهله في ظل هذا، لكنه لما رأى إصراره احاله لمشاورة جده (علي بن حمد) فتذمر العم زيد، وترحم على جد جده (راشد بن رشيد) حيث لو كان حياً لكلفوه بمشاورته أيضا. أخبرني أبي أن عمه (رحمهما الله وكافة الأحبة) كان مهيب البنية منذ صغره، صادق العزيمة قوي الشكيمة رابط الجأش، مندفع في كلامه سديد الرأي صافي الفكر لا يخشى إلا ربه، لا يعاب عليه إلا شيء من الحدة في الطباع وغلظة، يوقر والديه وكبار أسرته ويحنو على صغارهم، إلا انه لا يتوانى عن التصريح بما يجيش في صدره، كما يستخدم أحيانا كلمات حادة لا يستسيغها الكثير.

لما جلس ثلاثتهم قبل المغرب باشر والده الحديث للجد، عن رغبة زيد في السفر لطلب الرزق، فسأله عن المكان الذي يصبو التوجه نحوه؟ فأجابه ان القطيف والعقير والمنامة والزبارة والشارقة، غدت مطروقة للكثير وقد أسس الجد صلات وطيدة هناك، وغدا عماله قادرون على الذهاب هناك وجلب السلع المجزية، لكنه يريد الذهاب للهند أو اليمن أو حضرموت، حيث بضائع تجلب من جاوة والحبشة بنوعية طيبة وكلفة متهاودة. فرد عليه الجد ان القوافل تغدو وتروح متسلسلة، بين مكة وصنعاء وعدن محملة بكل ما يصلح للبيع في الحجاز، أو يخرج لنجد والأحساء والشام والعراق، كما ان أهل مكة غالبيتهم على المذهب الزيدي أو الشافعي، والحنابلة والمالكية عددهم قليل لذا يصعب الائتلاف معهم. لما بداء جده يحدثه عن الهند فوجئوا بصياح، ثم دخل عليهم غلام من العمال يطلب "البشارة من العِمّان" فسألوه عن الخبر، فقال لهم ان الباشا قد وصل الرياض وأطلق سراح الأمير جلوي، وأرسله للدلم عند أخيه الإمام فيصل، وقبض على إسماعيل بيه الذي قتل أهل الحوطة والحريق في الحلوة، وأنه يزمع شنقه جزاء ما جرى منه هناك. علت الدهشة وجوه الثلاثة القاعدين وبدا لهم ضعف الرواية، لما استنطقوه عن الخبر بدا تضارب في أقواله، وبين أن مصدره أحد قرابته العاملين مع "الحيدر" فقال العم أنه ذاهب للحلة غداً، وسيمر على محل الحيدر ويتيقن الأمر. وعند الظهر عاد لوالده بنباء يقين، حيث ان "أخبار الصبيان خنفشارية" فإن جلوي قد عاد برسالة للإمام أن عليه أن يحضر للرياض، وسيسلمه الباشا خطاب أمان تام من والي مصر، الذي لم يعد للسلطان محمود عليه أمر، وعلى أن يبقى هناك سالماً مكرم، ويتولى شئون نجد خالد بن سعود يعاونه جلوي بن تركي، حتى تنقضي المفاهمة بين الإمام فيصل والباشا الكبير محمد علي. أما ما ذكر عن إسماعيل بيه فصحته أنه وبخه في محفل حاشد، وأنه يستحق الشنق على الباب الشمالي للرياض، لكنه وجد من الأولى أن يرسله لمصر، حتى يشنق على باب الفتوح ليكون عبرة لبقية قادة الجند في القاهرة، ويعلم الجميع جزاء من يقصر في عمله ويتراخى في تنفيذ الأوامر العليا.

لم تمر سوى أيام قليلة إلا وقد وصل للحريق مرسول من سبعان الدلم، يحرض سبعان الفُرع على البروز للقتال، والتوجه بكامل عددهم وعدتهم لمساندة الإمام في صد هجوم خورشد. وعلموا من الرجل أنه فور استلام الباشا لكتاب رفض تسليم الإمام نفسه، ومغادرة نجد ليعود للحجز في مصر، فقد جهز عساكره للتوجه للدلم للقبض عليه، ومن ثم التوجه للحوطة والحريق والانتقام مما قاموا به من عصيان، وقتلهم جنود الباشا ونهب موجوداتهم. تباحث معه كبار آل خثلان حول الوقت المتوقع لوصول البغاة، وبخاصة أن رمضان قد اقترب ومعظم عساكر الباشا قد يرغبون تأجيل الزحف، كما ان رفاقه من الأعراب قد يرون ذلك أيضا، لكن الرجل رد عليهم بخلاف ما ظنوا، وان الباشا وعساكره قد غادروا الرياض قبل أيام، وهم يزمعون التعجل في تسوية الأمر بالقوة خلال جمعتين أو ثلاث. كما ان الإمام فيصل يعول على مساندة الله له، ثم وقوف سبيع معه لصد العدوان، ريثما تصل حشود غفيرة من الأحساء بقيادة العفيصان. وأكد

لهم أن من المتوقع أن يجتمع عند الإمام جيش ينوف عدده على عشرة آلاف، وعليهم الإسراع في التوجه للدلم، حيث أرسل في طلب المجاهدين للحوطة والأفلاج وسدير أيضا. لما وصلوا المحمدي تبين لهم وجود جدار حديث، يدور حول الدلم كما يحيط السوار بالمعصم، وهو من طين لبِن غير مرتفع وعليه مراقب قليلة للاستطلاع والرماية، إلا أنه فصل المحمدي عن البلدة كلياً. تنزهوا قليلا صوب الشمال فوجدوا تحصينات طفيفة قبل نعجان، لم يكن لها من داع حيث الأرض كثبان رملية، تغوص فيها أقدام المشاة والركائب، وسيضطر الباشا عند قدومه من الرياض للالتفاف حولها. التقوا مع ركب من سبعان الحاير مهرولين للدلم، وقالوا لهم ان الباشا وجيشه مروا من عندهم شرقاً متجهين جنوبا ولم يتعرضوا للبلدة، وان عددهم بضعة آلاف معهم مدافع متوسطة الحجم، وأكثرهم من الأعراب الباحثين عن المال والأسلاب. اتفق الجميع على السكنى في المحمدي ليلاً، على أن يرابطوا نهاراً في فرقتين احداهما شمال شرق، والثانية شمال غرب البلدة كي يمنعوا خورشيد من حصارها. في اليوم التالي وصلهم مندوب من قحاطين الخرج، يدعوهم للغداء قبل الظهر في مكان كبارهم، من الحقبان الدواسر الذي سيحضره كافة المجاهدين، وعلى رأسهم الإمام فيصل وقرابته. ظن آل خثلان ان الزحام سيكون شديد، لذا قرروا أن يتقدم البعض منهم ويسبروا الحال، وإذا كان الأمر مرتب يعود أحدهم لاستدعاء البقية، حتى لا يعتقد بقلة عددهم كما انهم باشروا في اعداد طعامهم قبل وصول الدعوة. عاد لهم الرسول بأن الحقباني وجماعته الكرام قد نحروا عدد كبير من الإبل، واعدوا الحنطة الجيدة والتمن والمحل متسع، ويلزم حضور الجميع حيث يريد الإمام ترتيب صد هجوم البغاة. بعد الطعام تحدث القائد عن وجوب الحرص على سرعة سد أي ثغرة يحدثها العدو، ولما قال أحد الخرجاوية إن الباشا معه حشد غفير من العساكر والمدافع، رد عليه بأن حسبنا الله ونعم الوكيل، وحثهم على الاستغفار وسؤال خالقهم الثبات، ثم أضاف أن العفيصان في طريقه للدلم صحبة أكثر من عشرة آلاف مقاتل. تطلع العم زيد في الجمع ولا حظ ان بطانة الإمام عدد قليل من آل مقرن بعضهم صغار السن، كما يحيط به عدد غفير من مماليك والده، وآخرون من أتباع الإمام سعود (أبو شوارب) الذين وهن عظمهم واشتعلت رؤوسهم شيبا وثقلت خطاهم، وتوجس خيفة من غياب كبار العرب من آل جلاجل والرشيد والسدارى، كما لا يوجد إلا قلة من أهل القصيم والوشم والمحمل. تحدث رجل من خوالد اليمامة عن أهمية الهجوم على عساكر الباشا، وهم في فلاة خاوية من السواتر حتى ينزلوا بهم أفدح خسارة، لكن تميمي رد عليه بعدم الحاجة للتعرض لهم، ويكتفى ببقائهم في متاريسهم داخل البلدات، وترتيب غارات عليهم حسب ما تسمح به الحال. قرر الإمام الانصراف ووجه بأن رجاله سيبنون مكمن كل منهم، الذي عليهم أن يتربصوا فيه للبغاة ويمنعوا وصولهم للدلم بكافة الأحوال. فهم الجد أنه منصرف للقيلولة عند الحريم، حيث يقيم في بيت كبير يملكه أحد جلافى الخرج، ووضعه تحت تصرف الإمام فيصل، رغم أنه ليس منيع ولا محصن لكن به أماكن عديدة للحرس. أما ديوان الأعمال والمضيفة ومجلس الزوار، ففي بناية كبيرة بعيدة

يملكها أحد آل عاصم القحاطين، وبقية منازل الدلم قدمها أهلها الكرام للوافدين، وبخاصة المستضعفين الذين فروا من عساكر الباشا، خشية أن يحل بهم ما جرى لأهل الحلوة من قتل وهدم بيوت ونهب ممتلكات. لذا غصت الدور وحتى الأفنية باللاجئين، حتى ان بعضهم يمضي الليل وليس فوقه سقف يقي عياله زمهرير برد برج العقرب، حيث يقولون عنه "تحت النجم لا تقرب" لشدة نزول برد شديد من أعلى الجو.

قبل العصر جاءهم أحد رجاجيل الإمام متسائلا عن محل اقامتهم، فأجابه أحد الحراقى أنهم في جنوب غرب الهياثم عند المنيصف، فامتعض وتمتم قائلا "ذاك درب الحريق!" لذا فقد وجه سبعان الفُرع (نعام والحريق) بعيداً عن الركن الجنوبي الشرقي لسور الدلم، عند نخيل يقال لها زميقة، تقع خارج قرية صغيرة يحدها على طول الضلع الشرقي لسان من الطعوس الرملية الناعمة. بعد المغرب جلس آل خثلان يتسامرون، وأبدى بعضهم امتعاضه لنقل اقامتهم بعيدا عن الطريق للحريق، وكأن بعض أتباع الإمام يظنون السوء بهم، أو أنهم غير جادين في ولائهم للقيادة، وينوون التقهقر لبلدتهم عند وصول قوات العدو. وقال أحدهم ان الأمر لا يقتصر علينا، فقد أخبره بعض العجمان أنهم نقلوهم نحو الشمال الغربي، عكس طريق قدومهم من منازلهم في الجنوب الشرقي. أثار ذلك الاستياء لدى المجاهدين، لأنه ينبئ عن الاعداد للهزيمة وليس للنصر من عند الله، وان "الإحجام عن مهاجمة العدو" فيه تخاذل، وبخاصة أنه ما يزال في العراء مكشوف لأهل الأرض العارفين بأحوالها، بخلاف الغرباء وأعوانهم من البلدات البعيدة. وقال آخر إن خضرمة الخرج ودغرة مكانين ملائمين للهجوم، والفتك بالعدو بعد استدراجه نحوهما، حيث تتناثر مزارع النخيل والشعبان وعروق الرمال، فلا تتمكن خيل وبغال الباشا من السير فيه، بينما جمالنا المهجنة تستطيع التعامل مع تلك العوائق.

أقام سبعان الخرج وليمة لجماعتهم حضرها معظم آل خثلان، مع حشد من سبعان جنوب اليمامة، ولفيف من أعيان المنطقة من بني خالد والعجمان وبني تميم والقحاطين. دار الحديث حول انقضاء بواكير الوسمي ولم تشهد الأرض قطرة مطر، ودعا الجميع الله أن يغيث البلد والعباد والبهائم والشجر، كما تساءل البعض عن حال البلدان الشمالية وما إذا جاءها الحيا، وبدت الأنباء غير سارة للجميع راجين الله أن ينزل الرزق من السماء بفضله واحسانه. تباحثوا أيضاً حول توفر الطعام داخل سور الدلم، فيما لو حاصرها الباشا مدة طويلة، فقال أحد سكانها ان الوافدين اليها من القرى المجاورة، جلبوا معهم كميات من الحنطة والتمر والذرة، حيث كان محصول الموسم الماضي طيب رغم قلة المطر. ذكر آخر ان خرج اليمامة تتوفر فيه مياه جيدة، حتى ان بعض العيون تسيح منها المياه، وتجري في بعض الشعاب لمسافة بعيدة، ولا تحتاج لجهد بشري أو حيواني لرفعها من الآبار العميقة، كما هو الحال في أكثر مناطق جزيرة العرب. وقال رجل ان السبب في ذلك قدرة الله، ثم وجود كثبان رملية تمتص الأمطار وتخزنها في جوف الأرض، كما ان سلسلة تلال وجبال طويق غرب الخرج تصدر

منها المياه، وتنحدر في باطن الأرض باتجاه الجنوب الشرقي، وتسيح على سطح الأرض في اليمامة، وفي أفلاج داخل الأرض كما في ليلى وأفلاج عُمان، أما عيون الأحساء فتخرج منها المياه بغزارة حتى في سنوات شح المطر، لكن تزيد فيها الملوحة وتؤثر على بعض النباتات. عرض أحد الجالسين ما بلغه من أسلافه أن عيون الخرج والهفهوف مصدرها الشام والعراق، ويظهر ذلك في قرى الجابية والجبلين والقصيم، وإن كان بعضها عالي الملوحة وتنشأ فيه سبخات، لكن الله حبا سيح اليمامة بمياه قليلة الملوحة. قاطعهم رجل متذمر من سوالف المياه بينما الدماء في خطر داهم، وهو كبير السن حاد الطباع قوي التعبير، فقال بلهجته القروية أنه يرى اليوم تكرار ما حدث قبل أكثر من عشرين سنة، حيث قاتل في الدرعية تحت بيرق الإمام عبدالله (ولد أبو شوارب) وكان الباشا الكبير إبراهيم (ولد حاكم مصر) يغزو وادي حنيفة، ويدك بمدافعه الأسوار والأبراج والقصور، حتى وصل الطريف فاستسلم له الإمام وأرسل لمصر أسيراً ثم شنق في إسطنبول. واليوم كأن المأساة تتكرر وإذا كان الإمام فيصل يريد المصالحة فليتوجه لإبن عمه الأمير خالد، الذي جاء في صحبة الباشا ليتوسط له في المصالحة وينهي الأمر. أما إذا كان يريد الجهاد ضد خورشيد باشا وعساكره، فليأمرنا بذلك فنهجدهم وهم نيام والقمر يضيء الليل، ونطب في بطونهم ثم ننحرهم وسط الرمال، ونفتك من شرهم كما عملنا قبل شهور في الحوطة، ونقضي على دبش المصاروة البغاة الذين جاءوا لبلادنا، يريدون عودتنا لجهالة البدع والمنكرات. رد عليه أحد العارفين من قرابته، ان على الكل طاعة ولي الأمر والانصياع لرأيه، وهو بعون الله موفق للصواب. عارضه آخر ان المحيطين بفيصل من الخدم، الذين لا يحسنون سوى النفخ والطبخ، وإذا لم يؤخذ بالسنع فلا لزوم لنا للبقاء هنا في زمهرير المربعانية القادمة قريبا، وادلى أحد الجالسين بدلوه في الجدال، قائلا ان الإمام ينتظر قدوم عماد قواته القادمون من الأحساء، فعارضه زميل له ان ابن عفيصان لا يبدو جاد، حيث مضى شهر والمجاهدون ينتظرونه، ولو أنه يسير من الهند لوصل. كان العم زيد يتوق أن يحثهم على ترك الأقوال المتخاذلة، لكنه من صغار السن في المكان، ويحضره أباه وجده وأعمامه وأبنائهم (ناصر وسعد) الذين قد لا يروق لهم ما سيقول، لذا ركن للإنصات والانكار في قلبه. عرض سبيعي على الحضور أن يتوجه للإمام وفد، من ثلاثة عقلاء ذوي الفكر الرشيد والمنطق السمح، وان يكون منهم قحطاني وتميمي وخالدي، فرفضوا إلا ان يكون معهم سبيعي، حيث منازلهم في "خشم مدافع الباشا" وحتى يتفهم الإمام موقف أهل اليمامة عن بكرة أبيهم.

التقاهم فيصل بن تركي رحمه الله بحفاوة وأثنى على حرصهم، ونصح بعدم التعجل في شن هجوم على عساكر الباشا ذوو العدد الغفير، والعتاد الحديث القوي حتى يصلوا مكان تسهل فيه منازلتهم، حيث ان الالتحام معهم في غير الزمن والمكان الملائم قد يجر لعواقب وخيمة، لذا عادوا منكسرين يظنون أن الإمام غير حريص على مجالدة العدو. إلا انه بعد يومين وصلهم نفير بوجوب أداء صلاة الصبح معه، وذلك عند الجانب

الشمالي لسور الدلم، على أن يصحبوا معهم كامل العدة والزهاب. وهناك علموا عن بدء عساكر الباشا الزحف جنوباً من نعجان، ولما اشتد ضوء النهار جاءهم السبور والكشافة باقتراب العدو ببطء من المحمدي. لما شارفوا على منطقة رملية صدرت إشارة الهجوم، فلاحظوا الإمام وقرابته من آل مقرن وأتباعه، قد ركبوا إبلهم بدلا من الخيل وانطلقوا مسرعين صوب طلائع البغاة، لذا باشر العم زيد ووالده وجده وأعمامه عمر ومحمد وحشد من آل خثلان امتطاء ركائبهم، حيث كانت مع بعضهم نياق عمانية هجينة سريعة، وآخرون على بغال وحمير حساوية ركضوا للحاق بهم. عندما اقتربوا من نهاية السبخة الصغيرة وبداية الرمال الدقيقة، شاهدوا العساكر المصرية والمغاربة يتعثرون هم وخيلهم في الأرض الناعمة، وبداء المتقدمون يرمون عليهم لكنهم كانوا أبعد من مدى بنادقهم. لما شارفوا عندهم أخذوا يرمون المعتدين وجندلوهم في التراب، وبدا أن ليس لديهم قيادة فعالة توجههم للصواب، فتناثروا في كل اتجاه مولين الأدبار، فترجل المجاهدون وأخذوا يطاردون من بقي من فلولهم، ثم اعملوا سلاحهم غير الناري (الأبيض) فيهم فقتل وجرح البعض وأُسر آخرين، بينما ركن البقية للفرار متقهقرين نحو "الملحا" في نعجان. صدرت إشارة من رجاجيل الإمام للكف عن مطاردة الفارين، خشية ان يكون امامهم كمين للعدو يستدرجونهم نحوه، وقام العمال وصغار السن بجمع المتروكات، وامتطوا الركائب عائدين جنوباً للمحمدي. أدت تلك المنازلة الأولى لانتعاش خواطر المجاهدين، وسألوه تعالى أن يجعلها فاتحة للمزيد من النصر، وتوجه البعض لسرادق أقيم لجلوس الإمام، حيث لاحظ العم زيد جلوسه مع القرابة والمساعدين في صدر المكان، وهو يتحدث في حبور معهم ويثنى على ما تم من دحر لطليعة العدو، وصدها عن التقدم لعاصمته ونواحيها ودعا الله بالمزيد من الثبات. كان المجلس في مكان طيب تحيطه المزروعات، مع نسائم خريفية متوسطة البرودة، وشمس ساطعة لا تحجبها سوى قطع متناثرة من السحب. لما عاد لمنزلهم عند جده وعمه، وجدهم في شغل بما قاله لهم متولي قيادة فرقتهم (المعيقل) عن حاجة الباشا وقواته للمياه، حيث طمر أهالي نعجان الآبار قبل رحيلهم منها، ولم يبقى سوى بئران أحدهما يسمى (فيحان) والآخر (قرنة) على أطراف البلدة، وهم يعملون الآن على نزح بعضها أو التوجه جنوباً للمحمدي حيث المياه غزيرة. وذلك ما حدا بأكثر الأعراب أن يعرضوا عن المشاركة في الهجوم فجراً، وقد أخبروا الباشا بعدم حرصهم على القتال إلا إذا توفر لهم الماء والطعام، رغم ما نفحهم إياه الأمير خالد من الفضة، كان يمكنهم شراء الكثير به من أهالي المنطقة، او من الباعة الجوالين بين مقرات المتقاتلين. تدارس أهل الحريق في مكمنهم أحوال تلك المجالدة التي قد تحدث صباح الغد، وتمنوا لو يسلمهم الله من الالتحام مع أبناء جزيرة العرب، الذين تربطهم بهم قرابة ورحم وملة حنيفية، لا يعلمون ما الذي حداهم للهجوم على أرضهم وإصابة بني جلدتهم، وعزا بعضهم الأمر للطمع أو الحقد وسألوه سبحانه العافية والسلامة من الفتن. في اليوم التالي لم يسمعوا ركزا من الجانب الآخر، لكن في ضحى اليوم الذي بعده سمعوا رماية من غرب الدلم، وفزعوا للسلاح والعتاد والركائب وانطلقوا صوبه، وهناك شاهدوا حشد

كبير من عسكر مصر يحاولون التسلل إلى داخل المدينة، ولما تصدى لهم السكان وجاء المدد انقلبوا على أعقابهم وانهزموا شمالا. وصلت فرقة كثيفة العدد من عند الإمام وباشروا اصلاح ما تهدم من السور، بينما انشغل العم وبعض شباب القرابة في مطاردة المنسحبين وأحدثوا فيهم إصابات فادحة، لكن أكثرهم كانوا في المقدمة متجهين نحو نعجان، فرأوا السلامة في الكف عن الملاحقة لئلا يقعوا في كمين غادر.

استمرت المناوشات بشكل شبه يومي لكنها متقطعة وفيها كر ثم فر، ووردت أنباء عن ترتيب الباشا هجوم من ثلاثة محاور، حيث يقود بنفسه هجوم على شمال الدلم، بينما يقوم أحد كبار معاونيه (ضابط) بالتوجه شرق البلدة (شمال زميقة) مع فرقة كبيرة مدعمة بالمدافع الميدانية مضادة للأفراد، وضابط آخر يتجه بقواته غرب الدلم (الصحنة حاليا) ليتمكن من اشغال المدافعين وتشتيت انتباههم. وقبل استطلاع هلال الشهر الفضيل بعدة أيام، وصلهم مندوب الإمام قائلاً ان خورشيد قد تحرك من نعجان، في حشد كثيف يبغي دك أسوار البلدة، ثم دخولها والاستيلاء على كافة نواحيها، والقبض على الإمام ومساعديه. فتوجه العم والقرابة في الثلث الأخير من الليل نحو الخفس، حسب توجيه قائدهم الذي سبقهم في المقدمة، وهناك كمنوا في العراء وشدة البرد محاولين ابعاد العدو عن حائط البلدة، ودفعهم للتقهقر نحو كثبان الرمال الناعمة حسب الخطة. قبل أذان الفجر جاءهم أمر لدخول الدلم سريعاً، فتوجه العم زيد ووالده ورهط من أعمامه وبنوهم وقرابتهم للبوابة، وبقي في الخارج جده علي وعدد من كبار السن وثقلاء الحركة. لم تكد تبدأ أول خيوط النهار حتى اتضح للجميع الحشد الغفير المصطف خارج السور، وقد رتبت المدافع الصغيرة والمتوسطة في مواضع الرماية، وأشار أحدهم إلى بيرق أحمر مع بياض، وعلموا بذلك ان الباشا يقود بنفسه الزحف. كان في فرقتهم جمع من رجال الدرعية الموالين للإمام، ورغم تقدمهم في العمر إلا انهم بدوا في قوة بأس، متحمسين لمحاربة العدو وصد غزوته ضد ديار المسلمين! كان منهم رجل طويل القامة مفتول العضلات، يقال له بخيت ذكر أنه رأى في منامه الإمام سعود يحرضه على القدوم إليه، بينما كان مع حور العين يفتلون له شواربه، فغدت أجمل مما كانت عليه في الدنيا. ثم أخذ يحث الصحب على الثبات عند اللقاء، وان يكثروا الاستغفار والتحسب (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى يأتيهم نصر الله، وحرصهم على مجابهة البغاة بحماسة وعزم وأن لا يولوهم الأدبار. كان مع بخيت رجل يبدو أنه صهره يقال له الخرجاوي، لا يقل عنه بسالة لكنه أكثر منه معرفة بالأرض، ويقل عنه سناً بنحو خمس عشرة سنة، حاد البصر سريع الخطى جهوري الصوت.

قبل أول شعاع للشمس باشرت بعض المدافع القريبة من الحائط، صب حمم قذائفها على السور الطيني الذي بدأت أجزاء منه تتهاوى، أعقبها رماية من المدافع الصغيرة التي سقطت قذائفها دون الجدار، وأحدثت كثير من العجاج الذي استغله نفر من عساكر الباشا للتقدم صوب الثغرة، مما جعل مكافحتهم عسيرة لصعوبة الرؤية وسط الغبار. صدرت توجيهات معاوني الإمام للتوجه نحو المكان لصد المتسللين، الذين كانوا من

المغاوير المدربين على أعمال الاقتحام والمداهمة، وبعضهم من "الفداوية" لا يهابون التعرض للخطر، وهم مسلحون ببنادق مطورة وفرود خفيفة ذلت مدى بعيد، تمنطقوا بالسيوف والخناجر التي أعملوها في المدافعين عن الدلم، وزاد بأسهم لما رأوا العشرات من رفاقهم يدخلون تباعاً للبلدة. لما لاحظ العم زيد بن عبدالله بطء تقدم المجاهدين لصد ذلك الهجوم، هرول مع فرقة من قرابته باتجاههم، فوجد بعض خدم الإمام قد سبقوهم، وأخذ الجميع مكامن في زوايا السكك يرمون منها على العسكر، لكن المدد كان يصلهم من عند الباشا بأسرع مما يقع عليهم، فشعر المجاهدون بالقنوط من تلك الخيبة. إلا أن لطف الله وصلهم سريعاً، حيث بدأت رماية كثيرة من أسطح المنازل المجاورة للجزء المتهدم من السور، مما جعل البغاة في ارتباك وحيرة، وبعد هنيهة وصلت طلائع جنود الإمام، والتفوا حول المتزاحمين للدخول حيث توقفت رماية المدافع، وفشلت معاول العسكر في توسعة الخرم. أدت كثافة تواجد عسكر الباشا عند الحائط، وعجزهم عن الانتشار داخل البلدة، إلى تمكن الرماة أعلى البنايات المجاورة للسور، من إنزال إصابات فادحة في جمهرة العسكر المنتظرين لدخول الدلم من تلك الثغرة غير الواسعة. بينما الالتحام على أشده في تلك الناحية من الحائط، تبين أن الإمام قد أرسل العشرات من الأشداء متسللين من كوة، واتجهوا في سرعة وبسالة نحو حشد العسكر المصري خارج السور، والتحموا معهم وهم في ارتباك من ذلك الهجوم المفاجئ الذي لم يحتسبوا له، وأعانهم الله على ايقاع إصابات جسيمة فيهم، مستغلين نقص المدد وتوقف رماية المدافع. لكنها سرعان ما عادت تدوي بعد أن غيرت اتجاهها صوب الجهة الشمالية الشرقية من الدلم، فشعر المجاهدون بالقنوط من احتمال تهدم جزء آخر من الجدار، يستخدمه البغاة لدخول البلدة والالتفاف عليهم، فزاد الحماس لدفع غائلة أولئك الذين دخلوها، ولما وصلهم المدد وبتوفيق الله تمكنوا من كسر خواطر العسكر، الذين بداء يدخلهم الذعر فتزاحموا للتقهقر خارجين، وبداء بعضهم يولي دبره مسرعين للشمال. كان العم زيد ضمن طائفة خرجت من السور لتعقبهم، لكن التوجيهات صدرت لهم بالعودة للداخل، حيث شاهدوا المدافع تقذف حممها صوب الجانب الآخر للبلدة، كما كان حشد من فرسان العدو يتأهبون خلف المدفعية لدخول الدلم فور حدوث ثغرة كافية. إلا ان بُعدها عن الحائط جعل أكثر القذائف تسقط دونه، ثم لاحظ المقاتلون في الأسطح تبدل الحال، حيث عمد البغاة لتحويل اتجاههم نحو زميقة، لما توجهت خيلهم نحو الركن الشمالي الشرقي، أعمى الله بصائرهم عن المرقب (برج صغير فيه فتحات رماية) فسارع المجاهدون نحوه، ومن الأعلى صبوا طلقات بارودهم ورصاصهم على المعتدين، سقطت جياد المقدمة وركابها متجندلين في التراب، ولما انحرف البقية يساراً تعثرت ركائبهم في الرمال الشرقية، عندها خرج صناديد جنود الإمام فيصل من الخوخة الضيقة، وهرولوا نحوهم راجلين غير آبهين بنيران البغاة المضطربة، مما الزم المؤخرة أن تلوي عنان خيلها وتتقهقر شمالا. عند ارتفاع الضحى بدا أن اليأس قد دب في قلوب المصريين، وسكنت الرماية ثم توقفت محاولات الهجوم على البلدة الوادعة. انشغل العم وبقية المقاتلين في أسر ذوي الجراح الطفيفة ونقلوهم للداخل

للسؤال، وأعطوا إشارة للبغاة أن يرسلوا عمال غير مسلحين، لسحب جثث القتلى والمصابين.

بعد العصر اطمأن الجميع على سلامة قرابتهم وأحبتهم، وأتموا دفن الشهداء ومباشرة علاج الجرحى والمكسورين، وكان أحدهم قد أصيب في ساقه لما سقط من شاهق. وقد أخبرهم بعض الأسرى، أن عساكر الباشا في ضنك لقلة المياه والطعام، حيث قام أبطال من آل عريعر في نعجان بإرسال ما لديهم من مؤونة مع المحارم والضعفاء، وأتلفوا الباقي حتى لا يتقوى به العدو، بينما عمد آخرون لإخفائه بغرض بيعه بثمن باهظ. وكان العم زيد قد لاحظ ان أحد المعتدين قد حمل معه خِرّجٌ به حنطة، وكان الأولى أن يحرص على سلامة وسهولة فراره، بدلا من حمل الطعام الثقيل، كما ان الأعراب المرافقين للباشا رفضوا المشاركة في الهجوم بسبب ذلك. فهل يستوي من يقاتل للدفاع عن كلمة الله وشرعه، ولحماية دماء وأعراض وأملاك قومه، مع من يرافق البغاة الذين جاءوا لنشر الفساد في الأرض، لا يروم سوى الاسترزاق بالأجرة مع نصيب من المتروكات والمسلوبات؟ لقد كان الباشا رجل فهم للحرب، ولديه نظام جيد للتواصل مع أطراف قواته وضباطهم، فهو يستخدم أبواق ومزامير عالية الرجع، لإعطاء اشارت التقدم والالتفاف والانسحاب، وكذلك بيارق مختلفة الألوان على سواري عالية، بل وذكر البعض أنه يستخدم الحمام الزاجل لنقل مكاتيب، تصل إلى أقفاص فيها أفراخ كامنة. إلا ان مفصل العجز لديه يكمن في تدني الحماسة للقتال، بين عساكره رغم ما لديهم من سلاح حديث فعال. أما الإمام فيصل فلدى أكثر رجاله عزيمة قوية للقتال، مدافعين عن أنفسهم وديارهم لكن عتادهم ضعيف وعددهم قليل. بعد حلول الظلام باشر العمال في سد الثغرة، وتقوية السور بحجارة صلبة كانت قد أحضرت من تلال طويق القريبة غربا، لكن ضيق الوقت لم يمكنهم من استخدامها في السابق. جاء أحد سكان نعجان متسللا يحمل نباء مزعج، بأن الباشا يزمع شن هجوم أقوى عبر ثلاث اتجاهات، أولها من خلال المحمدي شمالا، وثانيها بالعبور على طرف الكثبان الرملية شرقا، ثم دخول زراعات زميقة والالتفاف على الركن الجنوبي للدلم. وعلى ان تقوم فرقة كبيرة بقيادته بالتوجه للضاحية الغربية للدلم (الصحنة) وراء الوادي، لكن لم يمكن التحقق من مصداقية المخبر، ومع هذا قرر الجد عبدالله أن والده (علي بن حمد) لابد أن ينتقل بعيدا، حيث توعك في ذلك المساء وبدا كما لو أنه قد ضُرِب بلفحة برد. استدعى رجال الإمام الناس للمعاونة في تعزيز الضلع الشمالي للسور، لكن العم زيد وأكثر أهله اكتفوا بارسال بعض الخدم، وتفرغوا للنظر في سلاحهم والتجهيز للمنازلة المتوقعة غداً. طيلة الليل اختلطت أصوات العاملين في الجدار، مع ضوضاء من بعيد بدا منها ان العدو يتقدم بمدفعيته الثقيلة تجاه الدلم، وتبينت صحة ذلك صباحا لما شاهدوا صف طويل من عساكر الباشا، رافقهم ذلك اليوم عدد غفير من الأعراب على الإبل، ويبدو أنهم قد نُفِحوا قدر جم من الفضة (فرانسة) وإلا ما جاءوا.

قبل شروق الشمس انهالت على الدلم الحمم النارية، وباشرت قذائف المدافع تدك السور الطيني الضعيف للدلم، بل ان بعضها تجاوز الحائط وأصاب بعض البنايات داخل البلدة. لما حاول عدد من فرسان مصر ولوبيه التقدم، ردت عليهم فرق المجاهدين برصاص البندق، ثم مشوا نحوا من حاولوا التسلل داخل البلدة واجهزوا عليهم، واستمر الالتحام طيلة سحابة ذلك اليوم والخسائر جسيمة في الطرفين، لكن العزيمة والتوكل على الله أقوى لدى أحدهما. وبلغ الجهد الجميع وسال العرق والدمع والدماء، وتعالت صيحات المجاهدين يسألون خالقهم الثبات، ولما توغل بعض البغاة داخل سكك البلدة، ارتفع صراخ النسوة والأطفال لما سمعوا فرقعة البارود وقرقعة السيوف. عند زوال الشمس بعد الظهيرة امتلاء الجو بدخان كثيف، ثم بدأت تخور قوى الغزاة، وأدرك غالبيتهم عدم جدوى الاستمرار في المنازلة، ويعود ذلك لما جابهوه من مقاومة باسلة من المجاهدين، وتناقص المدد لهم من خارج السور، لذا بداء بعضهم يتسللون لواذا، نحو الثغرات التي حدثت في الحائط، كما بدت تصلهم إشارات الانسحاب. ثم عادت رماية المدافع تقصف المنازل داخل البلدة، وفوجئ العم بقدوم عدد من الخيالة من احدى السكك الجنوبية، مسرعين على صهوات جيادهم نحو مدفعين قريبين جهة الشمال الغربي، ليس عندهم إلا نفر قليل من العسكر مع قائد فصيلهم (الضابط) وأخذوا يمطرونهم بوابل من طلقات سلاحهم، ولم يتمكنوا من ردهم إلا ان احدى مقذوفاتهم أصابت جماعة من المجاهدين.

عند العصر جلس العم زيد ووالده وقرابته وبعض الصحب لتناول طعام خفيف، وهم يترصدون لأي محاولة من العدو للتسلل داخل الدلم، بخاصة ان الحائط به أكثر من ثلم بعضها يتسع لدخول الإبل والبغال. كانوا يحاولون ترصد الأنباء، حيث كانوا في جهل تام عما يجري عند الإمام، ولم يعرفوا ما إذا كان الباشا قد نجح في حركته الصباحية. بعد أداء فريضة المغرب بينما هم في منزلهم، وبعد أن ساد الصمت الموحش أرجاء المكان، وفاحت رائحة طبيخ عمالهم جاءهم بعض الرجال، يتلمسون أخبار وينقلون أخرى ويتشممون. فهموا منهم ان الإمام متحصن في مقره، وقد أرسل يستلحق العفيصان ويحثه لسرعة القدوم، أما الباشا فقد شق طريقه عنوة نحو الجنوب، وحرضه البعض على النزول في زراعة متسعة متناثرة، بها مبنى كبير وملحق به مباني أصغر يقال له العشباني، وهو مُلك رجل دوسري من المصارير، غادر المحل مع عياله لما ثارت الهيجاء في الدلم. وقد أعجب خورشد بنظام البناء ورياشه ووفرة مياهه، إلا أن رفاقه من الأعراب لم يتيحوا له التمتع بذلك، فسارعوا لنهب ما فيه من طعام ومنقولات، بدعوى أن أهلهم بحاجة إليه لكنهم سارعوا لبيعها في الجوار. فجرت ملاسنة ووحشة بين بعض أعوانه وضباطه وأولئك المرتزقة، فقبضوا على أربعة من صغارهم وتوعدوا بقتلهم إذا لم تعاد المسروقات. شخص آخر قال إنه كان قريباً من الحائط، عندما دكتهم قذيفة أصابت قريب يقال له فيروز وصهره "حبيش" ولما باشروا يلقنونه الشهادة، حيث كانت إصابته جسيمة أتلفت شقه الأيسر، بداء يهذي بتناقص شعوره لكنه

تذكر بدقة عمه الإمام سعود (أبو شوارب) وسرد لفيروز لحظات وفاته، وهو مسجى في مقصورة ابنته الأميرة خديجة، وهو يتطلع نحو الزمردة الدرية الموضوعة في كوة على الحائط المواجه له، ثم تمنى أن يلحق به وتعود أيامهم الخوالي. وتعجب أحد الحضور من حرص البعض على أمور دنياه، حتى بعد أن بلغت روحه الحلقوم، بينما أبدى آخر اعجابه بشدة الولاء للسادة الأقدمين. لكن الجد عبد الله بن علي أوصاهم بذكر الله والكف عن الأقاويل، رغم ما كان يعانيه من الحمى التي الزمته الفراش، وقال آخر من آل خثلان إن الوفاء لم يكن يوما خصلة مذمومة. تفرق الجمع فمنهم من توجه للتهجد، وآخرون للنوم والبقية ركنوا للكلام في أحوال خلق الله، رغم ما يتوجسونه عن أحداث الغد، فقد أمسى الباشا وجنوده على شمال وجنوب الدلم. قبل الفجر بساعة هرول نحوهم مرسول من طرف الإمام، يحث الفرقة على أن يتواجدوا في الطرف الجنوبي غرباً، قبل أذان الصبح ويجهزوا مكامن وسواتر لهم، حيث علموا ان بعض عسكر العدو يزمعون شن هجوم من تلك الناحية وجوارها. هناك لاحظوا عدم اكتمال السور لكن المكان يعج بالزراعات، فتوجد أعداد كثيفة من الحيش (نخل) وفي ظلالها عرائش عنب، واشجار فواكه من تين وخوخ ورمان، وقد تساقطت أوراقها بفعل البرد القارس وقلة السقيا. بعد ساعتين من شروق الشمس لا حظوا قدوم ركائب، تتجه نحوهم من الجنوب الشرقي تسير الهوينا في سلام بدون سلاح، الإبل العربية واللباس جعلهم يظنون فيهم خيرا، لكن من ارتابوا فيهم قرروا التوجه نحوهم رجلية، حينذاك مد الخونة أيديهم لإخراج بنادقهم المجهزة للرماية، وأطلقوا زخات البارود على المجاهدين الآمنين، فأصيب عدد منهم وتجندل آخرون صرعى. هب رجال الجماعة سريعاً للتعامل معهم، وبدأوا رميهم من مبعدة بينما اتخذ آخرون أماكنهم خلف السواتر، وكمن رجال في محميات من رماية العدو المهرول نحوهم، وبينما هم في اشتباك برزت فرقة من المصاروة وأتباعهم من جهة الميسرة، يهرولون مسرعين على الخيل يرمون المجاهدين بوابل من نيرانهم. أمر الجد عبدالله بن علي ولده زيد، لمرافقة اثنان من العمال لطلب النجدة من الفرق المستقرة غربهم، لكنهم لم يبتعدوا كثيراً حتى واجهتهم كوكبة من خيالة الحوطة، يهرولون فزعين نحوهم لما سمعوا شدة الرماية. لكن العم زيد استمر متوجهاً للغرب لطلب المزيد من المدد، بينما يتنصت على صوت الطلقات خلفه، متمنياً ان يكون الغزاة قد انكسروا وعادوا ادراجهم. بعد رجوعه للمحل هاله رؤية العدد الغفير من العساكر، الذين تمكن بعضهم من الوصول إلى الأحجية واحتلوها، وكمنوا في المخابئ للتستر من الرماية، كما يصلهم مدد متوالي من المسلحين سواء الأعراب أو الغرباء. بدا ان قادة الإمام فيصل شعروا بضعف تلك الجبهة، وقلة عدد المرابطين فيها وضعف عتادهم، رغم أنها تمثل المفصل الرئيس لصد الهجمات على جنوب البلدة، لذا تعالت أصوات جمع حاشد من مجاهدي السيح والحوطة والأفلاج، جاءوا من الغرب لشد أزر المدافعين، وقام بعض شجعانهم بالترجل عن ركائبهم، وهرولوا على عجل صوب المكامن القريبة فباغتوا العدو المختبئ فيها، حيث جرى التحام يدوي بالخناجر والكردات (السلاح الأبيض) بدت فيه حماسة المدافعين

عن أرضهم ضد الغزاة الغرباء. هب كثير من بقية المجاهدين للتوجه نحو تجمعات العدو، واختلط دخان البارود مع العجاج والدماء مع العرق، وانزلقت الأقدام في عصارة بعض النباتات التي لم تجف بعج. واستمرت المنازلة حتى قريبا من زوال الشمس عن كبد السماء، وتوقف وصول المزيد من الدعم للعدو، بينما استمرت وفود المقاتلين لمساندة أهل الحق، وبعد وقت سمعوا نفير مزمار ضباط الباشا يعلن الانسحاب، فحمد المسلمون ربهم أن أيدهم بنصره وثبت أقدامهم. شعر العم زيد بالهلع من منظر الرجال الذين سقطوا على الأرض بين جريح وقتيل، وراعه أكثر صوت رماية شديدة من الجهة الأخرى للبلدة، وظن أن هناك التحام آخر في تلك الناحية، فسأل الله أن يؤيد بنصره الموحدين نابذوا المنكرات، وأن يثبت أقدامهم وراودته نفسه أن يمتطي دابته ويهرول لمساندة دفاعاتهم، لكن والده أمره بالإشراف على علاج الجرحى ودفن الشهداء، أما العمال فقد تولوا جر أبدان الغزاة بعيداً للجنوب.

ساد سكون حذر في اليوم التالي ولم تصلهم توجيهات القيادة، لذا انصرف جماعة آل خثلان يطببون رفاقهم، ويتعهدون عتادهم لإصلاح ما عطب منه، وينظرون أحوال دوابهم وما قد اعتراها أثناء المعركة. وفي العشي جاءهم رسول يحثهم للتجهز للرحيل في ثلاث فرق، تتوجه كل واحدة نحو موقع مختلف، حيث سيجدون جنود الإمام وتنضم كل فرقة مع رديفها، ويتولون صد هجوم العدو على ذلك المكان. لما انقضى ثلث الليل انضم العم زيد مع بعض بني عمه، وتوجهوا نحو "الخراب" بينما توجه البقية نحو "خييسة والخفس" حيث وردت أنباء عن عزم الباشا الاستيلاء على الأماكن الثلاثة، ليطبق الحصار التام على الدلم، حيث استحال عليه دخول البلدة خلال الأيام الماضية. أثناء سيرهم في الظلام مروا على بعض الرفاق في "سمحة" حيث وجدوهم يحفرون مكامن، عمقها نحو نصف قامة يحيطها كومة أحجار متوسطة الحجم، ترتفع عن سطح الأرض ثلاثة أشبار، ويتسع كل منها لثمانية رجال واقفين. أعجبتهم تلك الخطة لمكافحة هجوم البغاة، لكنهم كانوا في عجلة من أمرهم فحثوا مطاياهم لمد الخطى، حتى يصلوا الخراب ويباشروا بناء تحصيناتهم قبل انبلاج الصبح. موقعهم كان قريب من أطلال مدينة خاوية على عروشها، يعرفها أهل المنطقة كبقايا بلدة من العصور الغابرة، أو ما يطلق عليه البعض "العرب البائدة" الذين يقال إنهم من زمن عاد أو طسم وجديس، وقد حل الخراب بتلك البلدة لسبب مجهول، ذكر القدامى أنه بسبب زحف الرمال أو فيضان السيول، أو اسراب الجراد الكثيفة لسنين متوالية، كما قيل انه بتأثير وباء اجتاح المكان وأباد سكانه. سمعت في مجلس والدي أحد الدارسين يقول ان في اليمامة عدة مواقع تسمى "خرابة" وإن عدد منها قام بعض العاملين في مشروع الخرج الزراعي بالحفر فيها، وقد لقوا حُلي ثمينة وأواني عتيقة عليها آثار من كتابة غير عربية. وقال آخر ان بيوت ومتاجر التحف في أمريكا، يعرض بعضها شيء من تلك الآثار العتيقة، كما يباع سراً قليل منها بأسعار باهظة، لهواة جمع النوادر التراثية الثمينة.

عند الضحى كان الغالبية في غفوة بعد عناء ساعات من العمل الشاق، وسمع العم لعلعة رماية بعيدة، ففز متجهاً لمكمنه يسابقه عماله يحملون عدة الدفاع، فوجد بعض رفاقه قد سبقوه وقد تأهبوا للدفاع عن المكان الذي عهدت لهم القيادة به. بعد لحظات شاهد عجاجة ركائب متجهة نحوهم، ويرمون عليهم البارود والرصاص بكثافة فتريث حتى يقتربوا، لكنهم أبطأوا السير لما قام رجال في مكمن شرقي برشقهم، وسمع أحد مزامليه يقول ان عددنا لا يتجاوز الثمانين، والعدو يبلغ بضع مئات فرد عليه مجاهد "إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا" فرد الرجل بأن الله يعلم أن فينا ضعفاً، لكن العم أعرض عن ذلك لما رأى كوكبة من العسكر تقترب منهم، وباشر الرماية على بدن ركائبهم لسهولة اصابتها، وكبر الجميع وهللوا لما رأوا البغاة يتجندلون على الأرض، بينما لاذ بقيتهم بالفرار من المنازلة. وما هي إلا لحظة أو تكاد حتى سمعوا بوق أحد الضباط، مع إشارات بالبيارق توجه المزيد من العسكر نحوهم، ثم أقبلت إليهم مجموعة أخرى من المعتدين يرافقهم بعض الأعراب الخونة. انشغل العم في ملاحظة المهاجمين لاختيار أضعفهم لبدء الرماية عليه، بينما انهمك العمال في حشو البنادق بمراجيسهم، ويناولوها للمجاهدين الذين يترصدون للقادمين نحوهم، ويثورون سلاحهم نحو محل ضعفهم ليفتكوا بهم. كان المدافعون عن "الخرابة" لا يتجاوزون الثمانين إلا قليلا، أما الغزاة فهم أكثر من ذلك ويصلهم مدد مستمر بين الحين والآخر. لما تناقصت ذخيرة المجاهدين هدى الله أحد العارفين، من آل خثلان وأشار عليهم لجلب بعض فروع الشجر، لإلقائها بين أرجل ركائب العدو التي تمر قرب "الحجى" المتسترين فيه من العدو. وأشار آخر أن يمدوا بعض حبالهم من مكمنهم نحو الخندق القريب، الذي يكمن فيه رفاقهم وغطوها بالتراب، ولما وصل فوج من عسكر العدو قربهم سحبوا الحبال للأعلى فتعثرت فيها الدواب، فخرج نحوهم الشباب وأجهزوا على المعتدين بخناجرهم قبل أن يفيقوا من ارتباك سقطتهم. ورأى آخرون ان الأجدى أن يستتر بعضهم حول حوائط متهدمة متناثرة في المكان، حتى يتمكنوا من التصويب نحو عسكر العدو بدقة. في الهزيع الأخير من الليل سمعوا صرير عجلات خشبية، ولم يتمكنوا في الظلام الدامس من معرفة مصدر ذلك، لكن أحدهم خمن أن العدو يجر مدافع ليضربهم بها، حيث صدر نهيق بغال عجمية. عند الصباح تبين لهم وجود مدفع واحد صغير لا يتجاوز طول أنبوبه ذراعين، وقد تجمع حوله نحو ثلاثين من المصريين يرافقهم اثنان من ضباطهم، إضافة لمشرف يبدو أنه من البشناق الأراذل. لما شاهدوهم يلقمون المدفع بلفافات مكورة من البارود والحصى وقطع الرصاص، أخلى المجاهدون في المكمن القريب منهم موقعهم، وتقهقروا متوجهين صوب فئة قريبة من الرفاق. لما باشر الأعداء قذف حمم المدفع دوى صوت مرتفع، مع ضوء ساطع بلون أزرق وكمية هائلة من الدخان المعتم. لكن شيء من القذائف لم يسقط داخل سواتر المجاهدين، ولاحظ العم زيد الارتباك على كتيبة المدفع، ومحاولات لإصلاح مكانه وتحسين اللقمة التي تدفع لجوفه، حتى تنطلق صوب مواقع المجاهدين. لذا اقترح على رئيس فرقتهم أن تهب فرقة من مغاويرهم، وتخرج من الخندق فجاءة ترمي مشغلي المدفع بالبنادق، حتى إذا

وصلتهم تعاملت معهم بالسيوف لتفتك بهم. لكنه رأى ان هذا العمل فيه مخاطرة جمة، وقد يكون بعض العسكر مربوطين بالسلاسل في المدفع، وبعد قليل استجاب الله لدعاء أهل التوحيد وعطب المدفع، لذا باشر مشغلوه في التقهقر باتجاه مقر القيادة، ووجد المجاهدون الفرصة سانحة للخروج من مكانهم مهرولين نحو مؤخرتهم، مما اضطر العدو لامتطاء ركائبهم ولاذوا بالفرار. سارع نفر من الجماعة لجر المدفع المعطوب، واتجهوا نحو الدلم حيث سلموه لرجال الإمام فيصل، وعادوا لخندقهم في وجل حيث كانوا يسمعون رشقات الرصاص، صادرة من أطراف محل الخرائب الذي عُهِد لهم بالدفاع عنه، لكنهم لم يعرفوا تفاصيل ما جرى في ذلك الميدان.

عند مغرب ذلك اليوم شاهد البعض هلال شهر رمضان، وتحقق دخول الشهر الفضيل وتمنى أحدهم أن لو يتفق الإمام فيصل مع ابن عمه الأمير خالد على هدنة، ليتمكن المسلمون على الطرفين من أداء الفريضة الرابعة لدينهم، لكن لم يثبت شيء من ذلك. إلا أن صباح اليوم التالي لم يشهد أي تحركات أو إطلاق نار، وتمنى الكثير لو يستمر الهدوء مع الحذر طيلة مدة الصوم. عند منتصف الليلة الثانية من الشهر لاحظ أحد العمال تسلسل أربعة من جنود مصر نحو معسكر الجماعة، أرسل الجد نحوهم بعض الرجال للتعامل والصد، فوجدوهم غير مسلحين يدعون أنهم فارين من خدمة الألباني الخبيث، وانهم في "عِرض وكرامة" المسلمين، فربطوهم وجاءوا بهم عند الصحب. ادعى المصريون أنهم "سنيون" يلتزمون بالتوحيد ونصوص كتاب الله وسنة نبيه، وقد آذاهم ما شاهدوه من المنكرات في معسكرهم، فالضباط المصريين جاهروا بتعاطي الدخان ظهر أمس، متعللين أنهم على سفر وسيصومون عدة أيام أخر. أما الضباط الفرنسيين والسلافيين فهم لا يعرفون الإسلام ولا النصرانية، بل هم "لا دينيون" يدعون ألا يهلكهم إلا "الدهر" وينكرون وجود الخالق البارئ المصور، فعليهم منه سبحانه ما يستحقونه. اختلفت آراء الجماعة فمنهم من رأى ان هؤلاء جواسيس، وآخرون استساغوا روايتهم وعاملوهم كضيوف، لا يجب إلا احترامهم مثل أي دخيل على وجهاتهم، رأى الجد أن يرسل اثنان منهم للإمام في الدلم، لكنه ردهم حيث التجاء عنده حشد آخر مثلهم. بقي الرجال عندهم للعمل في الخدمة ولا يقاتلون رفاقهم، كما تسلل أحدهم ليخبر بعض صحبه ليفروا من جحيم الكفر إلى جنة الأيمان، حيث تقام الصلوات وشعائر الإسلام بعيداً عن منكرات الألبان، كما سافر بعضهم مع أهل الحريق لبعض الوقت. جاء رجل يهرول حاملاً بشارة وصول العفيصان للعرمة، وسوف يصل الدلم خلال يومين يرافقه عشرة آلاف مقاتل، فاستبشر الكثير بقرب الفرج حيث يعانون نقص حاد في عدد المقاتلين. قدر القوم من آل خثلان أن وصول ذلك الجيش الغفير سيقلب ميزان القوة، وسيصاب خورشد وعساكره الوهن لمجرد مشاهدتهم يقتربون من السيح، كما ان الأعراب المنضوين تحت لواء الباشا، سيدخلهم الذعر حيث بلغ الكثير صيت آل عفيصان خلال القرنين الماضيين، وما عرف عنهم من شجاعة ومهارة قتالية، سواء أثناء عملهم مع قرابتهم من آل عايذ حكام اليمامة سابقاً، أو فيما بعد لما عملوا مع إمارة

ابن سعود في الدرعية. رغم انتشار الحبور والسرور لوصول ذلك المدد، فقد كان الجد علي بن حمد كعادته حذر من فرط المشاعر، وعبر عن ذلك بقوله "اللهم انفع بهم ولا تكل عليهم" وحث الرفاق على التمسك بالتقوى والصبر ففيها مفاتيح نصر الله.

في اليوم التالي نفذ العم زيد الأمر بالتوجه نحو السهباء، رفقة عدد من المجاهدين بقيادة أمير من ذرية ثنيان بن سعود، وهناك تمعن في الحشد القادم من الأحساء، حيث قدر أن عددهم ربما يبلغ خمسة آلاف لكنه بالتأكيد يقل عن ثمانية، ولا يقارب العشرة آلاف كما قيل من قبل. لكن ما أثار قلقه هو ضعف تجهيزهم ورثاثة مظهر بعضهم، كما يتألفون من أخلاط غريبة من البشر، حيث الكتائب في المقدمة مع العفيصان كانت من مطير والخوالد والعجمان والدواسر والهواجر وبني مرة، لكن من يليهم يرجعون إلى أصول سكان الربع الخالي من الصيعر والسعيديين والنعيمية، وفي المؤخرة أخلاط من بني قُعيط وكثير بل ان معهم أناس من غرب حضرموت ولحوج. كانت ملابس بعضهم غير لائقة لمنازلة حربية، وركائب آخرين هزيلة ضعيفة السير من بُعد مسافة الطريق، والخيل والجمال ليست كثيرة بل معظمها حمير "حساوية" صغيرة، ولم يظهر ان هناك انسجام أو توافق لدخول معركة على قلب رجل واحد. ولما تداول العم مع أحد أقاربه حول مرئياته، نهاه عن الملاحظة المتشائمة ونبهه أن قوات خورشيد تعاني ما هو أسواء من ذلك، وحالتهم متدهورة ومرافقيهم من البدو يتربصون بهم الدوائر. جلب انتباه العم أيضاً عدم مشاهدة قطار أو أكثر من الجمال، يحمل الزاد والأرزاق إلى اليمامة، وبخاصة أن العفيصان من أهلها ويعلم عن نقص الطعام فيها، أثناء ذلك الشتاء الأشهب القارس. بخاصة ان فرضة الهفوف البحرية (العقير) تأتيها السفن من العراق وفارس والهند. كما ان الخرج آنذاك تعج بحشود من المقاتلين، الذين بالكاد يحملون عتادهم، والمنطقة لا تُخرِّج الحبوب والثمار إلا في الربيع والخريف، لذا تناصح مع قرابته بشأن شراء المزيد من مخزون الطعام، وترشيد استهلاكه لتفادي ما قد يحدث من نقص خلال الشهور القادمة، حينما تحتدم المعارك ويقل الوارد للسيح من الشرق. في مغرب اليوم التالي أولم الإمام فيصل إفطار للجميع، تزاحم فيه عدد غفير من غير أهل المنطقة، وأكثرهم صائمون بدون سحور لقلة ما لديهم من أكل، لذا تنحى معظم أهل جنوبي اليمامة، واكتفوا بتمرات وماء قبل الصلاة، ريثما يعد لهم عمالهم طعام العشاء بعد التراويح. تكلم آل خثلان مع بعضهم حول سوء الحال في الدلم، وقد بلغهم أن الإمام قد أمر بعدم دخول القادمين للبلدة، التي ازدحمت بالوافدين من القرى المجاورة، ولم تعد تتسع لغيرهم الغرباء عن المكان. كما قال أحدهم أنه قد أوصى العفيصان، أن ينشرهم في الزراعات المحيطة بالبلدة، ليتحصنوا فيها ويمنعوا الباشا من دك السور. كان من السهل على الخوالد والعجمان والدواسر أن يتوجهوا لقرابتهم في قرى الخرج ويسكنوا عندهم، أما من ليس لديهم معرفة بأهل وأرض المنطقة فقد كان ذلك عسير عليهم. قرر آل خثلان إرسال اثنين منهم مع خمسة من العمال للحريق، لجلب الغذاء مما يتوفر هناك من زاد جيد وبكلفة معتدلة. جلس آل خثلان مع بعض

أصدقائهم من الحوطة، فقيل لهم أن بعض المسلحين من أتباع العفيصان في فاقة شديدة، وقد استطعموا أناس فاستضافوهم على إفطار رمضاني دسم، فتبسطوا في الحديث عما يعانونهم منذ غادروا الهفوف، وبعضهم جاء مرغما لأنهم وقعوا في حصة عشيرتهم، التي فرضها عليهم الأمير ولم يكن لهم خيار آخر. وبلغهم أن الشظف على أشده في معسكر العدو، حتى ان أحد الضباط الفرنسيين صاح قائلا "إن الجيوش لا تسير على أرجلها بل على أمعائها" وإزاء ذلك الجوع في معسكر خورشيد فلا يمكن القتال، وانه سيغادر المكان للرياض أو ثرمداء والقصيم، لجلب الطعام للمتضورين جوعاً.

تحدث أحد القادمين من الأحساء بجلاء أنهم يرون الأمر مجرد "هوشة مريدي مع مريدي" لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وقريباً يصطلح المريدية مع بعضهم وينتهي الخلاف، وتكون الأمور قد "راحت على الذين راحوا!" رغم ثقل سمعه فقد أدرك الجد علي بن حمد سوء ذلك. فقال إن هذا من "كلام الفتنة" الذي لابد من الرد عليه، فقد أبعد علاقة الإمام فيصل مع ابن عمه الأمير خالد، فلم يجعلهما حفدة الإمام محمد بن سعود، بل لم يذكر أنهم من آل مقرن، وإنما حذف القرابة بعيداً حتى عن مرخان وجعلها في مانع المريدي. أما واقع الحال بغض النظر عن علة القرابة، فهي ان الإمام فيصل حاكم شرعي انعقدت له بيعة الأمة بعد موت والده، أما الأمير خالد فقد جاء به الباشا ليكون سوط يؤذي به من يخالفه، وليس له حل أو عقد وما هو إلا مأمور من طرف رجال الباشا في مصر. ومع هذا فإن الحال في ضواحي الدلم كان منهكاً للطرفين، بغض النظر عن تأويلات ما قد تدور به الأحوال، لذا نصحهم الجد عبدالله أن يتفرغوا لمتابعة اعداداتهم للقتال. لما غادر الرجل المجلس في ظل صمت مطبق، وعدم رضا عن مقولته البذيئة، قال أحد الخثالين ان الواجب توبيخه لسوء منطقه، فأردف قريبه بأن هؤلاء يفضل عدم التحرش بهم، حيث ينطبق عليه قول شُقة

فكم طويل إذا أبصرت جثته --------- تقول هذا غداة الروع ذو ظفرِ

فإن ألم به أمـــر فأفظعــه --------- رأيتــه خــاذلاً للأهـل والزُمرِ

لذا فعلينا أن نتجنب مجادلتهم وندعو الله لهم بالرشاد، وأن يجعلهم عوناً لإمام المسلمين في نضاله ضد البغاة. قال آخر إن مقارنته خارجة عن كل فكر سليم، وبخاصة أنه جاء من بعيد لنصرة فيصل فكيف يتجرأ على هذا القول الرديء؟ أجابه شاعر آل خثلان بأن ذلك ينطبق عليه قول المالكي

إذا استوت الأســافل والعلايــا ------- فتـلك بحق الله أســواء الرزايـا

ومن يُثني الأصاغر عن مراد -------- وقد جلس الأكابر في الزوايـا

متى يصل العطاش إلى ارتواء ------ إذا اســتقت البحـار من الركايا

تكلم واحد من أهل الحوطة البسطاء بأنه شاعر مبتديء، وربما ان هذا الكلام العنيف من نظمه، فلم يسبق له ان سمعه من قبل، واستمر الجدال حول الاختلاف بين أهل اليمامة، والمشارقة القادمون اليها من بعيد بطباع وأحوال غير مألوفة.

بينما يتهجد البعض وآخرون نائمون في انتظار السحور، جاء رسول من قلب الدلم بأن على الجماعة الإعداد لمنازلة قبل طلوع الشمس، لذا سارعوا بإيقاظ الرفاق ومباشرة التجهز للقتال. بين الأذان والإقامة جاءهم آخر بالقول أن العفيصان طلب من الإمام أن لا يشترك أحد مع مقاتليه في هجوم كاسح سيقوم به ضد معسكر خورشيد، وأنه سيأتيه برأسه قبل الظهر، وغاية المطلوب من أهل اليمامة أن يحافظ كل منهم على موقعه، ويمنعوا عساكر الباشا من الالتفاف عليه. قبل انبلاج الصبح حضر عندهم خمسة رجال من مرافقي العفيصان الحساوية، وأمروهم بالتوجه سوياً صوب الشمال، حيث باشروا في عمل تحصينات وسواتر خفيفة. لما سمعوا لعلعة إطلاق النار سارع كل منهم للتربص في مكمنه، ثم شاهدوا على مبعدة غبار حركة الدواب، وبدا ان البعض يقوم بمناورة للالتفاف على غريمه، وتصاعد دخان البارود وتعالت صيحات الرجال، وأصوات الركائب التي التوت أعناقها. كان قرب العم زيد أحد دواسر الشرق من صحب العفيصان، وأخذ يعتز بحسن قيادة زعيمهم وأنه لا شك سيحضر رأس الباشا، وأيده رهط من دواسر اليمامة بينما استغرق آخرون في الدعاء. اقترح أحدهم التوجه لمساندة الرفاق، لكن البقية أوصوا بعدم مخالفة أمر القيادة، حتى لا تحدث ثغرة يلتف منها العدو. بعد ساعة مرت كأنها دهر، شاهدوا إبل تتجه شرقاً غير بعيدة عنهم، ظن العم أنها لأعراب من مرافقي الباشا الخونة، الذين يبدو أنهم لاحظوا انكسار ضابطهم، فكانوا أول الفارين وهذا ديدن الجبناء. لما اقتربوا منهم باشر بعض المجاهدين الرماية عليهم، لكن البقية نهروهم وأوصوا بتركهم يفرون في أمان حتى يتبعهم البقية، ولا يستمر مع المصريين أحد من العرب. امتلأت قلوب أهل الحريق الصامدين بالحبور، ورفعوا الصوت بالتكبير شاكرين الله على هذا النصر، وبخاصة لما تزايدت فلول الهاربين من ساحة الوغى. سكنت الحال فيما عدا ضجيج رماية متقطعة، لكن قرب الزوال دوت انفجارات قوية، خمن الجد عبدالله أنها أصوات ضرب المدفعية، وتوجس الجميع الخيفة من أن يكون الباشا قد رتب مدافعه لتقصف كتائب العفيصان، الذين لم يعتادوا مشاهدة ضوئها الأزرق عند الظهر، ولا سماع دويها وهي تقذف الحمم من المعدن والحصى، تجاه ميدان القتال المحتشد فيه المقاتلون من أهل الأحساء. اقترح البعض أن يتوجهوا نحوهم حيث اكتسبوا خبرة ورباطة جأش، من منازلتهم لقوات إسماعيل بيه في الحلوة قبل شهور، لكن مندوبي العفيصان نهوهم عن ذلك، حيث أوامره ان لا يتقدم نحوهم أحد، ويكتفي الجميع بحماية مؤخرة جيشه من أي حركة التفافية غادرة. مرت اللحظات متثاقلة بعد أن تعالت أصداء دوي المدافع ورماية البنادق، وسأل الجميع ربهم اللطف فيما قدر، وان يلهم رفاقهم السداد في الرأي والرمي.

مرت اللحظات كأنها دهر والكل يتطلع في شغف، لسماع ما يفيد بانتصار المجاهدين على البغاة، إلا ان القلق ساورهم لما جاءهم فرسان يهرولون نحو الشرق، وقال أحدهم لرجال العفيصان أنهم قد أُمِروا بالانسحاب نحو السيح. بدت على الرجال علامات القلق وتوجس أكثر آل خثلان من معنى ذلك، وبينما هم يتحاورون حول الأمر إذ بحشد ضخم يتجه مسرعاً نحو الشرق، فامتطى أحد أتباع العفيصان ناقة عمانية نجيبة، وهرول في ساقتهم تاركاً رفاقه في حيرة، وعاد بعد فترة مكتئباً يحمل نباء انكسار الجماعة أمام القوم!

وصل آل خثلان إلى مستقرهم بعد العصر، وكان البعض منهم قد أفطر استعداداً لمنازلة العدو، عملا بحديث "ذهب المفطرون بالأجر كله" بينما أمسك آخرون صيامهم حتى يتبين ما إذا سيشاركون في المنازلة أم لا، لكن الجميع كانوا في حالة من البؤس والحزن الشديدين. تكلم البعض بمرارة عن أحداث ذلك اليوم المرير، فكان أحدهم متزن وقور يرجع الأمر لارتباك جنود العفيصان، وقلة التجهز للمنازلة بعد رحلة طويلة مضنية من الهفوف. وآخر تحدث باستهزاء عن خيبتهم في تقدير قوة الغريم، وظنهم ان جنود الباشا لقمة سائغة يمكنهم الإجهاز عليها بسهولة، وذلك ما دفعهم لنبذ مشاركة بقية المجاهدين معهم، حتى يفوزوا وحدهم بعوائد النصر. ولما سألوا الجد علي عما يراه حيال ذلك، أفادهم أنه يجهل كلياً ما جرى في سحابة ذلك النهار، وبالتالي فلا يتسنى له ابداء رأي بشأنه، وعلى من شارك في المنازلة وشاهد ما حدث أن يتولى الحكم على أسباب الانكسار. أحد الحاضرين كان شامتاً وقال ساخراً ان العفيصان ومعاونيه لن يرد اندحارهم إلا جبال العرمة، ولن يعودوا للخرج بعد ما وقعوا فيه بسبب سوء دبرتهم، فأجابه آخر بأنهم لن يقفوا عند العرمة بل قد يولون الأدبار حتى العقير، أو ربما يستقلون السفن إلى بلاد الفرس هرباً من الباشا وشرذمة عساكره. في اليومين التاليين كانت الرماية هادئة في كافة ضواحي الدلم، مما يشير إلى ان فريق الباشا قد عانى خسائر جمة، منعته من شن هجمات ضد مقاتلي الإمام، المنتشرون في قطاعات متناثرة في البلاد.

جاء لآل خثلان رجلان من أهل الحوطة، قالوا إن الإمام فيصل قد أوصى العفيصان أن يعتمد على بعض المشاركين في معركة الحلوة، ممن اكتسبوا مهارة في مكافحة المدافع، وأنهم قد طلبوا ان يحضر معهم بعض رفاق المعركة ضد إسماعيل بيه، سواء من الحريق أو نعام والأفلاج والخرج، ويودون أن يشارك معهم خمسة من آل خثلان، للقاء يتم بعد عصر الغد فرحب الجماعة بذلك. كان من بين خمسة آل خثلان الجد علي الذي قرر أن يصطحب معه حفيده زيد، ليسانده بسبب ضعف رجليه وما عرفه عنه من همة ومهارة رغم حداثة سنه. في الدلم وجدوا منزل الإمام مكتظ بحشود غفيرة، وقبل المغرب بقليل جاء أحد الخدم واختار عشرين رجل ليدخلوا للسلام على سيده (فيصل) منهم الجد، الذي شرح للجميع لاحقاً أنه قد عرف آل عفيصان واصهارهم العايذية، منذ عشرات السنين كحكام في اليمامة وقادة جيوش الدرعية. وقد وجد زعيمهم

جالساً مع الإمام يحادثه عما أصابهم من انكسار، وكيف أن عسكر الباشا ليسوا على قدر عال من الادراك، لكن الضباط الألبان والفرنسيين يحسنون قيادة المعارك، وان ما حل بهم من انكسار سببه أن أحد معاونيه (هاجري) قد خزه إبليس، فاصطحب مقاتليه من النعيمية والهواجر، في حركة التفافية ضد المصريين، لكنهم وقعوا في تحصينات لم يحتسبوا لها، ووقعوا في رماية مدفعية الميدان الصغيرة لكنها فتاكة، فتقهقروا بلا انتظام والحق بهم العدو خسائر فادحة، فأصيب بقية الجند بالهزيمة وتشتتوا في هرج ومرج. بين لهم الجد ان الإمام كان متجهماً شارد الذهن متقلب النظرات، وبدت عليه ملامح الحيرة والكآبة، وكان بجواره بعض قرابته من الإخوة (جلوي) وبنو العم (إبراهيم وزيد) وقرابة والده (ذرية فرحان وثنيان) أبناء سعود بن محمد بن مقرن. أما العفيصان فأظهرت بسماته بياض أسنانه، يبدو على ثقة قوية في نفسه وقدراته، رزين الحركة ورابط الجأش جزل التعبير عما يراه ملائماً. التفت الإمام نحو أحد كبار بنو تميم وسأله عن كيفية تغلبهم على مدفعية العسكر في السنة الماضية، فبين له أنهم عادة يربطون مشغلي المدفع إليه بالسلاسل، حتى تنصب جهودهم في تلقيمه وتوجيه قذائفه ثم اطلاقها على الهدف، ويلي ذلك تبريده وتنظيفه من بقايا البارود. وعادة ما يصاحب تلك الفرقة المسماة "الطوبجية" كتيبة من الجنود المستترين في مكمن، يتولون حمايتهم من أي هجوم من العدو، وهم مسلحون ببنادق بعيدة المدى قوية الرماية، كما يعملون لمنع الطبجية من الهروب إذا اضطربت ساحة الوغى. وأثناء الحديث جاء أحد خواص الإمام يدعوه لتناول الطعام، فقد حل وقت أذان المغرب، لذا أمر العفيصان أن يدعو معاونيه لحضور عرض تمريني، لكيفية الهجوم على فرقة المدفعية (الطوب) بعد السحور بساعة. وعند بزوغ أول ضوء النهار جاءهم العفيصان مع ثلة من أعوانه وحرسه، ولما باشر أناس من الحوطة والحريق شرح الحال، حيث أعدوا حفر تماثل مكمن العساكر المدافعين، الملتفين حول جرم خشبي يماثل المدفع، وقد تجمع حوله من يشابهون الطبجية المربوطين، فبينوا أن أنجع الخطط هي في تركيز الرماية من بعد على رتبة المشغلين، وبعد إصابتهم يباشرون الفتك بفرقة حمايتهم، لإجبارهم على التقهقر أو الفتك بهم. لكن العفيصان قاطع ذلك وسأل عن المدافع التي غنموها في المنازلة مع جيش إسماعيل بيه، فرد أحدهم انهم لم يبلغوا بالأمر إلا عصر أمس، وقد أرسلوا في طلبها وستستغرق أيام قليلة للوصول، حيث رغم صغر حجمها إلا أنها تتطلب ثيران قوية لجرها، عبر الطريق الوعرة من الحلوة إلى الدلم. فأشاح الرجل بيده قائلا لا بأس فلا يظن بحدوث أي التحام إلا بعد رمضان، حيث أوقعت قواته خسائر فادحة على عساكر الباشا.

عاد الجد وولده عبدالله وحفيده زيد مع بقية جماعتهم لمنزلهم، لكن أعينهم أبت أن تغمض حتى انقضت الصفرة واستقر الضحى، وعند العصر تحاوروا بشأن الحال المرتبك في الدلم، وكيف يأمنون مكائد الباشا طيلة شهر رمضان، وبخاصة أنه والمسلمون معه مفطرون بعذر السفر؟ بعد يومين وصل رسول من طرف الإمام يحث

على التجهز غداً، حيث سيشن فيصل بن تركي بن عبدالله غارة قوية على المصاروة، يؤمل أن تصيبهم بهزيمة ساحقة في هذا الشهر المبارك. إلا أنهم استقبلوا عصر ذاك اليوم وافدين من سبعان الحاير، طلبوا منهم سرعة إخبار الإمام ان في الأمر خدعة وفخ قاتل، حيث خرجت من الرياض حشود من العسكر تجمعت من الوشم والقصيم، وانهم يتخفون في هيئة عمال بسطاء يحملون الطعام للباشا في نعجان، وقد أخفوا سلاحهم وذخيرتهم في عدول الطعام على المطايا. لذا يلزم التحوط وعدم مهاجمتهم بقوات خفيفة، حيث ان شوكتهم قوية وهم ليسوا عمال نقل بل مقاتلين أشداء. سارعوا بإرسال أحد أهل الحريق وآخر من سبعان المحمدي لمرافقة رجل من سهول الحاير، الذين التقوا مع أمير من قرابة الإمام، وشرح له تفاصيل الأمر. لكنه جابههم ان العفيصان يبحث عن نصر يزيل سوءة الهزيمة، ويود ان يعترض غير "ذات الشوكة" ليسهل دحرهم، لكنه طمأنهم أنه سيحذر الإمام من احتمال صحة خبرهم. قبل الفجر جاءهم مطيري من رجال العفيصان، وتجهزوا للخروج في طاعة أمر القيادة، حيث كان أكثر آل خثلان مفطرين متأهبين لمنازلة حامية. اتجه بهم الرجل صوب الشمال الشرقي حتى وصلوا "شعيب فرزان" واتخذوا منزل مؤقت من بيوت الشعر، فرغم برودة الهواء إلا ان شعاع الشمس مؤذي، وتمنوا لو انهم في محل رفاقهم من الأفلاج، الذين توجهوا نحو قرية اليمامة (مسيلمة الكذاب) الغير بعيدة عنهم، ورغم ان كثير من مبانيها القديمة خربة، إلا أنها أفضل من العراء في طرف الشعيب. قال المطيري ان قوات الإمام تكمن جنوب "جبل الهيت" وتبعد عنهم مسيرة ساعتين أو أكثر، وهم يتربصون لقافلة المؤونة القادمة من الرياض، وان على الجماعة حماية مؤخرة العفيصان، من أي محاولة من الباشا لشن هجوم مضاد من نعجان.

هنا أستأذنكم أيها الأحبة الحريصون على معرفة سيرة كبيركم وأسلافه، واستخلاص العبر والفوائد مما مر عليهم في زمنهم البعيد، لاستخلاص ما قد يُفِدكم في توجيه تصرفاتكم نحو النجاح وتلافي العقبات، بأن نتوقف لبرهة لأسرد لكم ما سمعته في مجلس والدي صاحب السيرة (عبدالله بن خثلان) في مطلع الربع الأخير من القرن الرابع عشر هجري. فلما ورد ذكر جبل الهيت قال أحد الحضور إنه جزء من سلسلة تلال السلي، التي تقع آنذاك شرق الرياض في وسط العارض، الذي يحده غرباً جبال طويق وشرقاً تلال العرمة. وقد سُمي كذلك لأن به كهف تتجمع فيه بين آونة وأخرى مياه، تنبت فيها كائنات متناهية الصغر تنمو لتصبح لاحقاً أسماك صغيرة، فسماه الأعراب "ذا الحيتان" ثم انحرف المسمى ليكون الحيت أو الهيت. قاطعه آخر بالاعتراض على عبارة "تنبت فيه الأسماك" حيث هي حيوانات وليست أشجار، لكن رجل من مسلمي الهند الكبرى يحسن العربية رفض ذلك، فقال إن الله "أنبتكم من الأرض نباتا" وخلقنا "من طين لازب" لكننا للأسف نتبع تأويلات قديمة لكتاب الله، استندت على روايات إسرائيلية، لم يجد المفسرون القدامى أي مصدر بديل لها. اعترض أحد الحضور على الهندي وقال انه يصدق نظرية دارون بأن أصل الانسان

قرد، فرد عليه بأن ذلك أمر غير مؤكد لكن المؤكد أن أصله قطرة بول، فقد قال تعالى "افرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون" فهل هذا مهين؟ استمر الهندي في حديثه بالقول "سيروا في الأرض فأنظروا كيف بداء الخلق" فهل فعلنا ذلك؟ ثم أجاب بالنفي وأن المسلمين منذ قرون يتبعون نصوص توراتية، بأنه سبحانه أرسل ملائكة للأرض ليحضروا ثلاث حفن من ترابها، واحدة بيضاء وأخرى صفراء وثالثة سوداء، ثم مزجها بيديه وصنع منها صنم حجري، ثم جعله إنسان يمشي ويفكر، وهي رواية ليس في كتاب الله ما يؤيدها، لكنه التأويل الذي يفترض أن لا يعلمه إلا الله لكن البعض ادعوا لأنفسهم أنهم يعرفونه. ثم أردف بالقول إن الله قد قال للناس أنه "خلقك فسواك فعدلك" فهذه ثلاث مراحل منفصلة ومتباعدة، فهو سبحانه قد خلق في الأرض ذئاب وتماسيح وغوريلات، ربما أنه "خلقها أطوارا" بقدرته الفائقة، لتتطور من كائنات صغيرة في الطين، لتتحول بمشيئته إلى مخلوقات غير متشابهة في الفرع لكنها متساوية في الأصل، وبحكمته وقدرته سبحانه لجعلها متنوعة. أما التسوية الواردة في الانفطار فهي ترتيب خصائص المخلوقات المتنوعة، وأما التعديل فقد اختلف علماء القراءة عما اذا كان بسكون الدال أو بتشديدها. لأن ذلك يعطي مفهوم مختلف، فقد يعني ان أبو البشر آدم عليه السلام لم يكن قادراً على المشي بانتصاب كامل حتى عدله الله، أو قد تعني أنه سبحانه قد علمه البعد عن الجور والظلم والحكم بالعدل. أما نفخ الروح فيه منه سبحانه فقد لا يشبه النفخ في مريم ابنة عمران، والرسول الذي تمثل لها بشراً سويا ليهب لها غلاما زكيا إحدى معجزاته سبحانه، فهي "التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا" لذا علينا أن نتفطن في كلام الله بعيداً عن تحريفات اليهود للتوراة. وختم الرجل الهندي كلامه بالقول، اللهم علمنا ما جهلنا وتجاوز عن أخطائنا، ثم سكت حيث لاحظ السكون يطبق على المجلس، والبعض يهمس لمجاوره وهو يهز رأسه علامة الرفض. تطلعت نحو والدي رحمه الله الذي صمت للحظة قصيرة كأنها دهر، ثم تبسم وقال يبدو أنك يا شيخ عبدالحق ما زلت تكره الإنقليز، رغم أنهم رحلوا عن بلادكم قبل عشر سنوات أو أكثر، فرد عليه الرجل بأنهم غادروا بعد أن زرعوا بذور الفتن والفساد. في الجلسات التالية تساءل البعض عن كنه ذلك الشيخ، لكن لم يتطرق أحد لمضمون كلماته، التي لا اعتقد أني قد استوعبتها وأنا في تلك السن المبكرة. مع أن والدي كان لا يكتفي بدراستي النظامية آنذاك، بل يعهد لبعض الفقهاء في أروقة الحرم المكي شرح كتاب الله لي، وكان جميعهم من وسط آسيا أو غرب أفريقيا ليس بينهم عرب، باستثناء شيخ وقور كان يرسلني مع السائق لمنزله لأتلقى العلم القرآني منه، وبدا أنه ذو مكانة مرموقة يعيش في منزل فخم مع زوجته وابنتيه، وقد كان يتعجب من كثرة أسئلتي عن مضامين كلام الله "المنطوق أو المخلوق!" الذي سمعت أحدهم يتجادل مع فقيه بشأنه عند باب الزيادة.

ونعود الآن إلى السياق الزمني قبل تلك الجلسة بما ينوف على مائة وعشرون سنة، حينما كان أسلافكم على طرف شعيب فرزان شمال "سيح الخرج" حيث حضر لقائدهم

التابع للعفيصان رجل يهرول متنكراً في لباس الرعاة، أفاده ان قوات الباشا متجمعة شمال الهيت بقيادة ضابط بوسني. وثلاث كتائب بقيادة يوناني، خرجت من نعجان صوب الشمال الشرقي، وربما أنهم قد لاحظوا وجود المجاهدين قرب الهيت. انطلق العم زيد رفقة مجموعة من خيالة الحريق والحوطة والمحمدي، يقودهم أحد رجال العفيصان مسرعين باتجاه الغرب، بينما كان والده (عبدالله بن علي) خلفهم على الإبل، أما الجد علي فقد بقي مع الآخرين في الشعيب لحماية المؤخرة. لما لاحظ قائدهم بالناظور عجاج العدو أمرهم بالنزول في مطمن، يختبئوا فيه ريثما يصلهم بقية الرفاق من شرق، لكن البغاة لاحظوا القادمين على الإبل بسرعة فتأهبوا لصدهم، وكمنوا في أحد مجاري السيل لرماية المجاهدين إذا اقتربوا من مدى بواريدهم. لاحظ العم زيد وهو بجوار فرسه الرابضة، أن الكتائب المعادية الثلاث يقودها ثلاثة ضباط مصريين أحدهم بارع لكنه متعجرف، والثاني مرتبك والآخر رعديد كمن في أقصى الغرب لسرعة الفرار. ولما باشروا في رماية المجاهدين أصدر القائد أمره بالرد عليهم، وكان العم زيد يجيد التصويب على بعد وبارودته حديثة، ومعه اثنان من العمال يسرعون في تلقيم السلاح. كان المجرى الذي استتر فيه المصريون ضحل لا يغطيهم، لذا أصابتهم طلقات المجاهدين في مقتل، وكان جنود الإمام فيصل آل سعود رحمه الله في غاية الإخلاص والعزيمة. إلا ان الفرقة التي فيها والد زيد تأخرت في الترجل من على ظهور الركائب، ولم تبرك البعارين إلا بعد لحظات، كانت كافية لتصيب المجاهدين رماية بنادق عساكر اليوناني، فسقط العديد منهم مثخنين بالجراح واستشهد بعضهم. تلقى العم ورفاقه أمر قائدهم بالخروج نحو البغاة، وتحسبوا جميعاً ان ذلك عمل أخرق ضد مصاروة منبطحين في مكمن، لكن الله أراد الخذلان بالقوم فبمجرد أن شاهدوا العرب يتجهون نحوهم، بادروا للقيام وامتطاء خيولهم فارين باتجاه الغرب. هرول العم مع بقية الرفاق عائدين إلى خيلهم، لما رأوا انكسار المعتدين الغرباء وطاردوهم، حتى شارفوا على زول معسكر ضخم ترفرف عليه بيارق حمراء. صاح أحد الرفاق حادي البصر ان حرس المخيم يديرون المدافع نحوهم، ويشحنونها بالبارود والمعدن والحصى لذا أمرهم القائد بالتريث، ولما تبين له بالناظور كثرة المسلحين في المعسكر وقوة التحصينات، قرر الانقلاب شرقاً والعودة على عجل لمكانهم. هناك وجدوا الصحب في حال كريهة، حيث مرت بهم فلول قوات العفيصان منهزمة شرقاً، وعلموا منهم أن قافلة العدو التي ظنوها لقمة سائغة كانت مسلحة بقوة، ثم خرج عليهم كمين يقوده خورشيد باشا، وفتك بهم وجعلهم شذر مذر وألزمهم الفرار.

بعد العشي كان كبار آل خثلان يتداولون الحال، ومعهم الجد علي بن حمد متوعك، وولده عبدالله جريح يئن من الألم، وحفيده زيد زائغ الذهن غير مدرك لما عليهم فعله إزاء تلك الهزائم المتوالية. استنكر أكثر الحضور ما يقوم به الأمير عفيصان من تناقضات، وقد اعتادوا خلال عشرات السنوات الماضية، ان آل عفيصان يقودون المجاهدين من أهل التوحيد للظفر بعون الله، فلماذا انقلبت الحال هكذا وكيف يتسنى

اصلاح الحال؟ قال أحد قحاطين الخرج مصاهر لسبعان الدلم، إن هذه المنازلة هي أول مرة يقود فيها أحد العفيصان قوات تحارب طرف آخر من آل سعود، وذكر الحضور ان فيصل بن تركي وخالد بن سعود كلاهما أبناء أحد أئمة آل سعود، وكلاهما حفدة مؤسس إمارة الدرعية محمد بن سعود. لذا فالكثير يتحرجون من منازلة قاتلها ومقتولها في النار! فيدخل الوهن سريعاً في القلوب. رد عليه أحد كبار آل خثلان بأنهم قد سئموا المقارنة بين فيصل الإمام الشرعي، وخالد الأفندي الألعوبة في يد باشا مصر، لكنه أجابه ان محمد علي الالباني حاكم مصر، قد آتاه الله ملكا عظيما وتمكن ولده إبراهيم من دحر قوات السلطان محمود وسيطر على جنوب الأناضول، وتخافه عساكر العثمانية الذين تخشاهم الروس والانجليز والفرنسيون. أردف رفيق له بالقول إن المصالحة التي رتبها أشراف ينبع بين الأميرين قبل سنة، يمكن العودة لها وحقن الدماء بين المسلمين. قرر الجد عبدالله قطع المداولة بالقول ان النصر من عند الله وحده، وسأله ان يهب الجميع الرشاد وحسن التدبير ويُسكِن الفتن، واقترح ابن عمه حرف الكلام باقتراح الذهاب للإمام فيصل لتهنئته بدخول عشر رمضان.

في اليوم التالي تكاثر الوافدون عند الجماعة، كل منهم يحمل خبر أو ظن عن الإمام، يختلف عما يقوله سواه من الناس، لكن الاتفاق سائد على ان الرجل يعاني من كدر وحزن شديدين، وضاق صدره بكل من حوله. وراجت أقاويل أنه يفكر في العودة للأحساء، ليتمكن من إعادة ترتيب قواته، والتجهيز لهجوم كاسح ضد عساكر خورشيد، أو يتجه لأصهاره من يام ويختبئ عندهم ريثما يدبر أحواله. قال آخرون ان البعض قدموا له هدايا من نقود وثياب وخيل وإبل، بل وعمل غيرهم على تسلية خاطره بعرض بنته أو أخته عليه، لكي "يستنكحها خالصة" لنفسه أو من يراه من أولاده وإخوته وقرابته، فرد عليه أحد الخثالين إن أبناء الإمام ما زالوا صغار، وذلك عمل تأباه الأنفس الكريمة. وبعد صلاة العصر فوجئ الجماعة بضوضاء خارج مستقرهم، ودخل عليهم رجل تخضب وجهه بالدماء التي تسيل من أعلى جبهته، يرافقه خمسة يحاولون تهدئة حاله، سارع العم زيد باستدعاء اثنين من الخدم لإحضار الأداوي والضمادات، وباشروا في غسل الدماء ومحاولة وقف النزيف، الذي لم يكن شديد إلا ان الشج في الرأس قد يتطور لعقابيل خطيرة. تبين لهم ان الرجل ما هو إلا سعد بن تركي الهزاني، الذي جاء للدلم لقيادة جماعته نيابة عن أبيه الأمير تركي المتوعك. صاح الجد علي لما عرفه واقترب ليطمئن على الجرح، وإيقاف نزفه بمطحون من أعشاب وحبوب وبذور وبُن محمص، صرخ أحد الخثالين يلعن من قام بهذا الجرم البشع ضد صديقه ويتوعده بالانتقام. أخذ الجميع ينصحون المصاب بعدم الاضطجاع حتى لا يتزايد النزف، وسألوا مرافقيه عن سبب الإصابة، ولما عرفوا أنها نتيجة ضربة بعجراء غليظة اطمئنوا على سلامته، وحمدوا الله أنها ليست ضربة حديد. زالت شكوك الجماعة من أن تكون الواقعة في اشتباك مع عساكر الباشا، بخاصة أنهم ليسوا على مقربة، وأحضر بعضهم شراب منقه وكسر سعد صيامه وتناوله. بعد قليل انتعشت حاله وأخذ يحدثهم وهو يتلعثم عما

حدث، فقال إنه بعد ان خرج من مجلس الإمام متجهاً نحو مقره، تربص له أشرار عددهم يفوق رفاقه، وتلفظوا عليهم وجرت مقاولة بذيئة تطورت لإحداث الإصابة في رأسه. لما سألوه عن تلك العصبة التي اعتدت عليه وما إذا كان بينهم تنافر سابق لاذ بالصمت لبرهة، ثم قال إن آل خثلان من أعيان الحريق ومن المحبوبين له، وانه يريد منهم الخروج معه ليتوجهوا للثأر من المعتدين. ثم كرروا الاستفسار عن كنه المجرمين في حقه وسبب الخلاف، لكنه أطبق شفتيه ولم يتحدث هو ومرافقوه، فأعرضوا عن الالحاح في السؤال، ونادى كبير أل خثلان على الخادم ليباشر القهوة للمفطرين. دخل عليهم رجل حريقي لئيم يكرهه الكثير، فسلم باختصار وصاح على سعد بن تركي أن يهرول سريعاً للحريق، حيث ان قرابته قد اتجهوا إلى هناك، وربما يعتدون على أبيه كما فعلوا فيه، وينزعوا منه الإمارة أو يقتلوه. رد عليه أحدهم إن الأمير تركي بن عبدالله لديه أكثر من مائة جندي يحرسونه، ونهره أن لا يتدخل فيما لا يعنيه، فقال نعم لديه الكثير من العبيد الأذلاء لأنه نخاس، وحتى بعد أن "يكاتب مماليكه" يبقيهم في ربق الهوان تحت ولايته، ولا يقبل ذلك إلا ذوو الأنفس الدنيئة التي تضر ولا تنفع. قال له سعد كلام بذيء حاد، وتوعد أن يغادر المحل اذا لم يغادره، فهب اثنان من كبار الخثالين وكلموا الرجل بمناجاة لطيفة، وغادر ثلاثتهم المجلس إلى مكان داخل الدار. كان ذلك الحريقي من الجلاسية وقد جاء أبوه أيضا لوادي نعام من "حرمة سدير" لوجود إشكالات ضده هناك، وعاش في كنف الهزازنة لكنه بقي على مسمى عائلته الأصلي، وكان يكثر مخالفة أهل البلدة وتخطئة أقوالهم واعمالهم، يحاول رفع نقائصه بادعاء التفوق والتعالي، لذا كان الكثير يبغضونه ومنهم من يصارحه بذلك وهو غير مبالي.

قال سعد الهزاني أنه يريد من الجماعة أن يعاونوه في مطاردة المعتدين، والقصاص منهم، لكن أحد آل خثلان بين له أنهم خلال المائتي سنة الماضية كانوا ينأون بأنفسهم عن التدخل في اشكالاتهم، وهو يعلم أن أسلافه لما غدروا بأخوالهم (قواودة سبيع) بالتعاون مع العايذي، رفضت الجماعة الدخول في تلك الفتنة الكريهة وسفك دماء الأرحام. ثم لما حصلت مشاكسة مع الأمير محسن (آل عثمان)، نزهنا ألسنتنا وسلاحنا عن الخوض فيما جرى من تعدي على الأنفس والأملاك، ولما قام جدك ووالدك بالاستيلاء على الشيخة، رفضنا الدخول في الفتن بين القرابة. وأكد أن آل خثلان باقون على نفس المنوال، لا يرغبون بعد هذه السنين الانحراف عن ديدنهم، في الترفع عن المشاركة في الفتن بين أهل البلدة، التي يتسم بعض سكانها بحب سفك الدماء المحرمة. استطال البحث في الأمر وآل خثلان مصرون على موقفهم الراسخ منذ مئات السنين، ثم ختمه الجد عبدالله بن علي بالقول إنهم ما جاءوا للدلم إلا لقتال الغزاة الغرباء، وليسوا في حالة تجيز لهم مجرد الحديث في نزاعات بين أهالي الحريق. لما سمعوا ذلك بادر أحد الحواطى بتوجيه سعد بن تركي للذهاب معه لمنزل جماعته من آل مرشد، ووعده أن يناصروه ويشهروا سلاحهم للقصاص ممن اعتدى عليه. استطال الليل وبداء العم

زيد وقرابته يعدون للنوم، ليتمكنوا من الاستيقاظ في الهزيع الأخير للتهجد، عندما أقبل عليهم أحد عمالهم كان يسامر رفاقه، في منزل أهل الحوطة القريب منهم، ومعه خبر سيء بأن مشادة قد نشبت بين القوم هناك. سببها أن غالبيتهم رفضوا الدخول في المنازعة بين الأمير سعد بن تركي وقرابته، لكن بعض قليلي القدر ممن يحبون الخوض في مثل هذا، عابوا عليهم خذلان ابن صديقهم وحليفهم حتى وإن كان ضد بنو عمه. ومن المعلوم للأحبة أن في كل أسرة أو قرية "كبش أسود" أو أكثر، يتصرف ويتكلم بطريقة جاهلة يظن أنها ترفع قدره، وتجعله صاحب شهامة ونخوة يتعالى بها على من يفوقونه، ويتحزب معه أمثاله من قليلي الشيمة. لذا سارعت الكباش ترغي وتزبد وتتوعد أنها ستقف ضد من يمس الأمير سعد، ولما رفضت غالبية الكبراء والعقلاء سفاهتهم، قالوا إنهم ذاهبون لمقر الإمام ليستأذنوه في نصرة رفيقهم، ويطلبوا منه العون بالمال والرجال لمساندة من سيتسلم الإمارة من والده قريباً. لما وصلوا هناك وبصحبتهم جمع من العمال، ليكثروا من هيئتهم في الظلام، قال لهم خواص الإمام إنه متكدر ويريد الانفراد بنفسه، وأوصوهم بالحضور ضحى الغد لكنهم ألحوا عليهم ان الأمر جلل. ولما دخلوا عليه كان معهم بعض الخدم ولم يصاحبهم أحد من أعيان الحوطة، وأخذ البسطاء يرفعون أصواتهم متظاهرين بالغيرة والحماسة، يشرحون للإمام ما جرى بشكل يناقض بعضه البعض، وبأسلوب فظ لا يليق بمخاطبة العامة ناهيك بالحكام. لذا وضع الأمير جلوي سبابته على شفتيه ليصمتوا، بينما أشاح الإمام بيسراه نحوهم وانصرف خارجاً من مجلسه، لذا أمرهم الاتباع بالخروج قبل أن يصيبهم ما يسؤهم. بينما كان الغلام يتحدث جاء رجل من المحمدي وهو يقول "يالربع ما دريتوا" وأسرع بالدخول، لكن أحد العمال أمره بالصمت حتى ينتهي الحديث عما جرى من بعض سكان الحوطة. لكنه كان متحفزاً وبمجرد أن جاءت لحظة سكون سارع بالكلام، قائلا ان بعض من أعيان الدلم توجهوا للإمام، وأفصحوا له ان نسائهم وصغارهم وضعفاءهم لم يعودوا يتحملون الكرب، وقد استمر الحصار أكثر من شهر على قراهم وزراعتهم، وقد نما لعلمهم ان الباشا وصلت إليه المزيد من المدافع والعتاد، وانه يزمع دك بيوتهم على من فيها. لذا طلبوا الإذن من الإمام ان يتوجهوا لابن عمه، الأمير خالد ولد الإمام سعود أبو شوارب، ليعطيهم الأمان من سطوة خورشيد بالشروط التي يراها، حيث نفذت قدرتهم على المصابرة، وبعد مداولة مستفيضة قال لهم الإمام "افعلوا ما بدا لكم" وغادر المجلس وهو متكدر. تساءل أحد الحضور عما إذا كان اللقاء مع جماعة الحوطة المتشاجرين، قبل أو بعد اجتماعه مع أهل الدلم؟ شعر العم زيد بغصة من تلك الأنباء الكريهة، وتطلع نحو والده عبدالله بن علي فوجده في حيرة وذهول مما يجري.

الجمعة الأخيرة في رمضان كانت في مطلع المربعانية، حيث تشتد برودة الجو في اليمامة، وقد سبقتها الخمسين يوماً من الوسمِ، الذي توقع الفلاحون أن تهطل فيه أمطار جيدة، لكنها كانت أقل من المؤمل مع رياح وقتام مزعج. منذ وقت السحور أرسل الله

للدلم " ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر" نشرت التراب والعجاج، ومع ذلك فقد أصر معظم أفراد الجماعة على الخروج لأداء الصلاة، ورغم ان المسافر لا جمعة عليه، إلا ان اقامتهم في الخرج استطالت وكلهم لا يرغب ان تفوته فوائد الجمعة. الصعوبة تكمن في إصرار البعض ومنهم الجد علي، على التوجه لجامع المحمدي الشهير، حيث يحتشد كثير من سبعان اليمامة الجنوبية، مما اضطر العم زيد ان يتدبر الركائب مع العمال، في ذلك اليوم العاصف القارس البرودة مع غبار شديد وأثناء الصيام. بعد الفريضة توجه الكثير لأداء النوافل وتلاوة كتاب الله، ثم تأسست حلقة من بعض السبعان أخذت تتسع بالوافدين، فالتحق بهم الجد عبدالله حيث تطرق الكلام لحالة القيادة، وتعاملها مع الوضع المأزوم في مواجهة العدو الغاشم، وأفادهم البعض أن الأمور تتدهور من سيء للأسواء كل يوم. حيث يتجه الكثير من أهل البلدات لديوان الإمام، يطلبون الرخصة للعودة لديارهم، كما فعل بعض الحراقى والحواطى والأفلاجية ودواسر اللدام. أما أهل خرج اليمامة فيستأذنون للذهاب للأمير خالد، ليتوسط لهم لدى الباشا ليمنحهم العفو والأمان، كما فعل بعض قحاطين الدلم ونفر من أهل نعجان والسيح والسلمية وزميقة. لكن أحد المصلين جاء بخبر نزل كالصاعقة على رؤوسهم، فقد ادعى ان الإمام يفكر بتسليم نفسه للباشا، وقد أرسل أحد أبناء عمه ليتولى بحث ذلك معه. ساد الوجوم على الحاضرين في الجامع، وركن بعضهم لتكذيب ذلك حيث الإمام ليس في حال شديد الحرج، فما زال حوله رجال مخلصون والسبل سالكة، وما زالت ذكرى ابن عمه (الإمام عبدالله) ماثلة في الأذهان، لما سلم نفسه لإبراهيم باشا فسلموه للمشنقة. توجه العم زيد وقرابته عائدين لمحلهم، بعد أن نبههم البعض ان الريح قد تشتد بعد العصر، فتنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية، وهناك لم يستطع أحد منهم القيلولة لما ران الكدر على قلوبهم.

في اليوم التالي تأكد لهم من مصادر عديدة، صحة نباء عزم الإمام على تسليم نفسه، لذا اتفقوا جميعا على ان يوفدوا بعضهم للقائه، ودعوته لمرافقتهم للاختباء عندهم في جبال وكهوف "علية الحريق" ريثما يتم تدبير الحال، كما جرى مع والده قبل سنوات، لكن قيل لهم إنه معتكف ولا يأذن بلقاء أحد. جاء رجل من أعيان الحوطة يحمل نفس الفكرة، وأبى قبول الإعراض عن لقاء إمام المسلمين وأهل التوحيد بدعوى الاعتكاف، وأنبأهم ان بعض أكابر الدلم من القحاطين يرون ذلك أيضاً. توجه ركب حافل من المجاهدين نحو مكان الإمام فيصل، ورفضوا الحديث مع قرابته أو معاونيه، وأصروا على البقاء هناك حتى يلتقون إمامهم وقائدهم مهما كلف الأمر. وبعد ساعة برز لهم مرحباً ومثنياً عليهم وحسن نيتهم، لكنهم رفضوا الحديث في أي أمر سوى مجاهدة البغاة، ورفض التسليم لهم لحين الاستشهاد أو دحرهم. وطلبوا منه الخروج معهم ليلا لاستئناف النضال تحت رايته، ولما قال ان عساكر الباشا يحيطون بالدلم وبعض الأهالي يعاونونهم، فقال الجد عبدالله إن هناك دروب لا يبخصها إلا العارفون، فهناك وادي صغير ينحدر من جبال علية شرقا، حتى يصب في الرمال الواقعة جنوب نعجان،

لا يسلكه الناس لوجود كثير من السباع المفترسة على جوانبه الصخرية. وقد رتبنا مع الجميع أن تخرجوا من الدلم رجلية متخفين مع الرعاة، وفي أعلى شعيب الهياثم ستجدون الركائب، لتتوجهوا للمناطق الغربية الوعرة حيث مغارات وكهوف، وسيتولى الله حراستكم مع ما ينوف على ألف مقاتل من رجالكم المخلصين، ولن تتمكن عساكره ومدافعه من التوغل في تلك التلال الموحشة. اتضحت نظرات الإمام الشاردة وهو يضع يمناه على لحيته، ويقلب يده اليسرى كأنه يشير لأحد قرابته، الذي سارع بالقول ان مع الباشا وخالد (ولد الإمام أبو شوارب) آلاف من الأعوان، سواء الغرباء أو من أهل الحريق والحوطة والدلم. فقاطعه الإمام مبيناً أنه لا يخشى إلا الله مهما تكاثر عدد العدو، لكن بلغني أن باشا قلعة مصر قدم لخورشيد العتاد اللازم لدك بلاد المسلمين، انتقاما لما جرى في الحوطة العام الماضي. وإذا تحصنا في الجبال سيصب العدو جام غضبه على البلدات، يهدم البيوت على من فيها من السكان، وهذا ما لا أرضاه عليهم لذا سأغادر معه لمصر. استطال البحث في عدة تحوطات وبدائل للخطة، وفي النهاية تبين إصرار الإمام على التسليم، فناشده أحدهم ألا يقبل الأمان من الباشا، ثم يلقى مصير ابن عمه الإمام عبدالله (المشنوق) فرد عليه ان للأمر ثلاثة جوانب، أولهم أنه يرضى أن يفدي بروحه الأبرياء والمستضعفين في اليمامة من بطش البغاة، وثانيهم أنه كان في مصر قبل أن يصلها الإمام عبد الله أسيراً، وهو الذي وافق برضاه التوجه للسلطان محمود بدون أمان منه، وهو يتأبط صندوق تلك الدرة التي أخذها أبوه من المسجد النبوي. والأمر الثالث أن الحال تبدل كثيراً الآن حيث نشبت الحرب بين السلطان وباشا مصر الألباني، وجيشه بقيادة ولده إبراهيم انتزع الولاية على الشام، واستحل أراضي واسعة من بلاد الترك بل اقترب من إسطنبول، ولم يعد لأحد فيها سلطة عليه كما في السابق. لم تُجدِ كافة المحاورات والمساجلات في صرف نظر الإمام عن التسليم، فقال أحد أهل الدلم أنهم قد جمعوا بعض المال لنفقة الحرب، ويودون أن يسمي لهم أحد أعوانه ليسلموه ذلك ليستعين به في شئونه، لكنه أبى ذلك لأنه أقام في مصر عدة سنوات وله فيها شؤون! وهو على علاقة مع بعض قرابة محمد علي! كما جالس الباشا مرات متكررة ولاحظ قناعته بحسن نية أهل نجد، وهو لا يضمر لهم الشر مالم ينازعوه الأمر.

في آخر يوم من شهر الصيام وردهم نباء كتابة اتفاق التسليم والأمان، بموجبه تعهد خورشيد بإيصال الإمام إلى والي مصر الألباني، ليبقى هناك في أمان وتكرمة هو وأهله، على أن يغادر الدلم بعد العيد بيومين طليقاً تحت حراسة عساكر الباشا. أدى الجميع صلاة العيد خارج الدلم، حيث جلس فيصل بن تركي يستمع الخطبة بين يدي إمام المصلى، أما خورشيد فقد أقام له أتباعه سرادق من الخوص وأثواب القماش، في الركن الشمالي الغربي من الساحة كأنه مقصورة، خشية أن يصيبه قناص من على بعد، بينما يحيط به نحو مائتين من ضباطه وعساكره، الذين صلى بعضهم والبقية يبدو أنهم كفار، أما المصريون فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل، حيث يقدسون

صلاة العيدين وبعض الجُمع ولا يبالي أكثرهم بالفرائض الخمس. وبُعيد انتهاء الخطبة لاحظ العم زيد من بعيد، انصراف الباشا شمالا وتوجه ثلة من الرجال نحو الإمام، وعلم لاحقاً أنه الأمير خالد بن سعود بن عبد العزيز، الذي عانق ابن عمه فيصل، وجرت بينهما مقاولة ودية حميمة. ثم توجهوا سوياً باتجاه الجنوب مشياً نحو خيام، فيها طعام أعده الإمام للحضور يتكون من لحوم الضأن والإبل والحنطة والتمن، ولم يذهب آل خثلان لذلك المخيم حيث كانوا في كدر والمكان مليء بالغبار، كما رتبوا إفطار العيد منذ الليل لهم ولجيرانهم. في مقرهم جلس البعض يتحدثون وآخرون ناموا، وأكثر ما تردد على ألسنتهم أبيات من قصيدة هجاء كافور (والي مصر من الإخشيد) التي مطلعها "عيد بأية حال عدت يا عيد" ويترحمون على شهدائهم، ويواسون ويداوون المصابين الذين يئنون في مضاجعهم. ثم تحدث أحدهم عن حسن ظن الإمام في باشا مصر، فقال صاحبه إن عجائز الحريق والمفيجر ونعام الساذجات، يعلمن صغار ذريتهم أن "سوء الظنية من الفطنية" فكيف لم يفطن لذلك، وهو يعلم عن تعليق ابن عمه على خشية المشنقة الهمايونية؟ نبذ آخر أقوال النسوة وأوصاهم بقول أدباء العرب القدماء "حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة" فيكفيكم عن غيره. لما طال الجدال تدخل شيخ كبير من آل خثلان، فقال ان الإمام سكن مصر نحو عشر سنين، وقال ان له شئون ومتعلقات مع بعض قرابة واليها، وهو أبخص بأموره هناك، فادعوا الله أن ينور بصيرته ويرشده للصلاح وكفوا عن اللغو. تساءل أحد البسطاء عن الذهاب لمبايعة الأمير خالد بن سعود إماماً على البلاد، فردوا عليه بما وردهم عن نهي خورشيد من قال ذلك، وأشار لرجل معه ذو جبة حمراء يسميه شيخ الإسلام، فأفتى الناس ان البيعة هي للقتال فقط! وأن الإمام هو للصلاة، ثم زاد خورشيد عليه بأن خالد أفندي هو قائم مقام المتصرف، وتحت نظر وتوجيه والي البلاد.

في اليوم الثالث كانوا قد شدوا الرحال وأزمع الكثير على العودة للديار، وهم يتساءلون عن أمن السبل من حنشل الأعراب والمصريين، فأرسلوا أحد الرعاة لتلمس الأحوال، وآخر من الخدم توجه للدلم لاستقصاء الأنباء. عاد إليهم بعدم الحاجة للشخوص لتوديع الإمام، حيث غادر ليلا مع حريمه وعياله وقرابته في سكون، وربما أنهم قد وصلوا الرياض قبل الظهر. أما الراعي فجاء بنباء تربص بعض المسلحين جنوب وغرب الدلم، وبعضهم مقيم عند روضة الصحنة، لذا ذهب أحد الجماعة لمقر أهل الحوطة لترتيب المغادرة مع بعضهم، في رهط قوي يخشاه اللصوص. كان مع آل خثلان ثلاثة من العمال المصريين، الذين انشقوا عن جماعتهم أثناء القتال، وانضووا تحت لواء أهل التوحيد، لما رأوا الفسوق والعصيان في معسكر خورشيد. والخادم الذي أرسلوه للدلم عاد ومعه مصري رابع، قال للعم زيد أنه لم يتمكن من الذهاب للرياض مع الإمام فيصل، لأنهم سوف يقتلونه هناك لأنه خائن، وقد بين أنه رافق الإمام في مصر سنتين، جعلته يعجب بخصاله الطيبة النقية، ولما جندوا بعض قومه هناك في حملتهم ضد فيصل، انضم معهم بقصد أداء فريضة الحج. ولما وصل الدلم مع كتائب الغزو قبل

رمضان، تسلل فوراً مجرداً من السلاح وهام على وجهه، حتى التقى أحد رجال الإمام وذهب إليه فرحب به، لكنه منعه من المشاركة في القتال ضد قومه. لذا فقد طلب من العم زيد أن يذهب معهم كخادم، ويتخفى لبضعة شهور حتى تسكن الحال، ثم يتسلل عائداً لبلاده. تشاور العم مع والده وطلب منه الموافقة على ذلك، فأجازه مع تحذير مما قد ينوه المصري ضدهم. كان الرجل (الحاج حسنين) ذو لحية كثة ويحف شاربه ويقصر ثوبه عملاً بالسنة النبوية، ذو بنية قوية ونظرات ثاقبة وفكر رزين، يتحدث بلهجة مصرية يجهلها الحراقى، لكنه تعلم من الإمام كلمات نجدية تيسر له الحال، حيث لا يجيد الفصحى كثيراً. خرج الجميع من الدلم وتوجهوا نحو الجنوب الغربي، يقصدون قرية صغيرة على شعيب يقال لها ماوان، وكلفوا اثنان من الأشداء معهم ثلاثة من العمال، أن يسيروا خلفهم على مبعدة ليستطلعوا (يسبروا) أي هجوم مُعادي. قبل منتصف الليل اشتد عليهم البرد، فأشعلوا النيران للطبخ والتدفئة، وتفرقوا في عدة خُبر حتى يظن أي قادم أنهم كثرة. قام حسنين فجاءة ممتشقاً سلاحه وصاح من هناك، فقد لاحظ زول قادم في الليلة الحالكة الظلام، وعاد بعد قليل معه رجل عليه أسمال بالية، ولهجته تدل أنه من بادية المكان، وتوسل إليهم أن يطعموه ويؤوه حتى الصباح، لكنهم شكوا فيه ومنحوه بعض الأكل وأمروه بالمغادرة من حيث أتى، ورفضوا إعطائه دراهم أو دابة يركبها كما طلب، وأمضوا ليلتهم يتوجسون وتندموا لعدم قبول نصيحة حسنين بربطه عندهم حتى الصباح. عند الضحى تفرق القوم فتوجه البعض جنوباً نحو المنسف ثم برك، ومنها إلى قراهم حول الحوطة، أما آل خثلان فقد ساروا جنوب غرب في شعاب وتلال طويق. لما وصلوا وادي الفرع قرر بعض الجماعة أن يتجهوا من فورهم نحو الحريق، لتلهفهم على رؤية أهلهم وصغارهم، أما الجد عبدالله فقد رأى الإقامة في مكان له في نعام، ريثما يصلحوا أمرهم ويتهيأوا للقاء أهلهم، إلا أنه في اليوم التالي وفد عليهم رهط من القرابة، معهم الطعام والركائب وعادوا سوياً للحريق.

وجد العم زيد البلدة في صخب وهرج فقد كادت تحدث مذبحة، بعد عودة سعد عند والده الأمير تركي الهزاني ولما تندمل جراحه، وهو حانق على قرابته الذين اعتدوا عليه في الدلم، بذريعة واهية تتعلق بمسألة زواج إحدى بناتهم! لكن الله سلم فقد كان تركي رغم شيخوخته، ما يزال قوي المراس لديه المال والرجال والعتاد، وبقية من فكر مستنير تتيح له أن يشكم نوازع الشر. حيث في البلدة طامعون في السلطة، لا يستنكفون عن سفك دماء الأقارب والجيران أو عابري السبيل، لإشباع أطماعهم في المنافع الدنيوية أو التعالي المقصود منه رفع الخسيسة. وكعادة آل خثلان بادروا للنأي بأنفسهم عن الانخراط في الممارسات الرذيلة، أو حتى التدخل في تباغض القرابة أو الأهالي، ويكتفون بالنصح للجميع أن يركنوا لخشية الله والحياء من الناس. أمر آخر عكر صفو البلدة في تلك الشهور الحرجة الدامية، وهو انتشار أمراض مثل الصفار والشبرة بكثافة غير معهودة، قال البعض ان سببها قدوم دواب وعساكر المصريين لليمامة. واضافة لذلك قلة المطر عن المعتاد، وكثرة هبوب عواصف التراب. لذا فقد

انشغل العم زيد في اصلاح ما يمكن، وترتيب أمور الزرع والضرع لمواجهة برودة الشتاء الأشهب في الحريق. أما خاطره فقد تكدر كلما تذكر حال إمام الموحدين، وهو يساق أسيراً لأرض غريبة، لكن العامل معه (حسنين) هداء من روعه، لما قال "ده رايح لأحسن حاجة" وأوصاه بعدم القلق، فهناك الكثير من مريديه في مصر ويحظى باحترام الجميع في مختلف درجات السلطة. قص على العم زيد كيف ان جامع الأزهر منذ سقوط الفاطمية، كانت فيه أروقة للمذاهب الأربعة، أكبرها الشافعية حيث يعمل بها كثير من المصريين، فهم يحرصون على زيارة قبر الإمام الشافعي، ويثمنون اختياره لمصر بعد ما لاقاه في تنقله بين غزة الهاشمية، ثم ارتحاله للحجاز واليمن والعراق. ورواق الحنفية يلقى حظوة لدي الحكام لأنهم مذهب دار الخلافة في إسطنبول، أما رواق المالكية فيرتاد دروسه وموائده المغاربة أثناء دربهم للحج أو عودتهم. والحنابلة لا يجدون القبول في مصر، بل يعتبرون السُباب والفكر الجامد خصائص لمنتسبيه، حتى جاء السعوديون بعد سقوط الدرعية، وعمروا ذلك الرواق بذكر الله والدروس الفريدة المستنيرة، مما زاد من اقبال الرواد لينهلوا من منابع السنة النبوية، ويفطنوا لما عم في مصر من بدع وجهالة. كان رواق الحنابلة تصدح فيه خطب بعض من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وثلة من فقهاء وعلماء نجد في كافة فنون الشريعة، وبعدها بسنوات قليلة برز دور فيصل بن تركي، في ارشاد المسلمين لأصول دينهم الحنيف، مع النأي عن الخوض في الكلام بشأن تدابير وسياسة الحكام. مما دفع والي مصر لزيادة ما يخصص لنفقة الرواق الحنبلي، بل وتدافع عدد من التجار والصناع وذوي الأطيان (الأراضي الخصبة) لتقديم جزء من زكواتهم له، كما أوقف البعض جزء من أملاكه للإنفاق على رواق الحنابلة المهمل سالفاً.

بعد شهور من العمل الجاد للعم زيد لإصلاح التلفيات، التي أصابت زرعهم ودوابهم وتجارتهم، شعر بالرضا لما تم إنجازه من تحسينات. وبداء بعض أقاربه وجيرانه ينظرون نحو الساحل الشرقي، لجلب البضائع المجزاة لاستخدام أهل البلدة، أو تخريجها شمالا للبيع لمن يرتحلون للشام والعراق. لكنه صرف النظر عن ذلك حسب نصيحة والده، حيث رغم ماقام به خورشيد من جهود لتأمين أمن السبل، إلا ان مراكز جمع المكوس والضرائب، تقلل جدوى العمل التجاري مع مدن البحر الشرقي. يضاف إلى ذلك أن أهل الساحل ركنوا لطرق بحرية بعيداً عن نجد لتصريف سلعهم، حيث غدت سفنهم تتجه شمالا للبصرة العراقية، وأخرى تبحر عبر عدن في بحر القلزم (الأحمر) نحو أيلة (العقبة) الشامية. ثم تزايد قلق العم بشأن تناقص فرص العيش في الحريق، لما وصلتهم جماعة من الخرج مندوبة من أميرها، بدعوى خرص الثمار وتعداد الأنعام لجمع الزكاة، مفوضة من الأمير خالد بن سعود وخورشيد! وكانت المعضلة تكمن في إجحاف العمالة في تقدير المستحق على أهل البلدة، حيث تضاعفت التقديرات على البعض لتتجاوز كثيراً ما قُدِر في العام الماضي، وكانت كرائم أملاك آل خثلان عرضة للأذى، بوشايات خسيسة من الغادرين. لكن ذلك تم تجاوزه بتعاون

الجد عبدالله بن علي، مع أحد قحاطين الحريق (شبانة) ذوي العلاقة مع عايذية الدلم، الذين بسطوا نفوذ واسع على جنوب اليمامة لعشرات السنين. وبقيت علاقتهم مع الحكام في الدرعية والرياض، رغم ما أصابهم من بطش الإمام سعود (أبو شوارب) ثم الإمام تركي، زمن إمارة زامل العايذي، لما يتسمون به من سمات شخصية محبوبة. وقد استعان ببعضهم الباشا خورشيد، لتلافي التصادم مع أعيان إقليم اليمامة، وضمان عدم الاجحاف بهم حتى لا يثوروا على سلطة الأمير خالد (أفندي) الهشة والمشتبه فيها. وفي خلال شهور بعد مغادرة الإمام فيصل نجد، كان الأهالي قد بدأوا يتآلفون مع حكم الباشا، فقد أحدث تحسين ملموس في حالة الأمن والقضاء، وأعد حصر دقيق لكافة زروع وأنعام المنطقة، لضمان تقليل الضرر على السكان من اجحاف تقدير الضرائب عليهم، وبخاصة ما يقوم به بعض المغاربة والأشوام. لقد بداء الكثير يستسيغون رؤية الباشا ويرون أنه الأقل أذى عليهم، وغدوا يسمونه "أخو رشيد" أما مبغضوه فيسمونه "خرشد" أي تافه. وأشير إلى أني سمعت أحد المصريين في مجلس المرحوم، يذكر عن وجود وثائق في شبرا تحوي إحصائيات دقيقة، عن الأوضاع الزراعية والرعوية والتجارية في نجد، وكان ذلك في مطلع ستينات القرن العشرين، وحبذا لو يقوم بعض السادة الأكاديميون بفحص ودراسة ذلك، إذا كان ما يزال محفوظا.

إلا ان خورشيد كعادة الألبان الطغاة يتوسع بلا حساب للعواقب، فبعد مطاردته الفاشلة للعفيصان في الأحساء، أوصاه بعض المسترزقين من النزاعات والحروب الصغيرة، ان يتجه شمالا حيث الكثير من الغنائم، وأقوام يبغضون الغطرسة العثمانية المقيتة. ولما توجه إلى هناك شعر ولاة العراق، في البصرة وبغداد والموصل بالخطر الداهم، وبخاصة مع وجود القوات المصرية بقيادة إبراهيم بن محمد علي، في جنوب غرب الأناضول وعند جبال طوروس. ولما وصلت رسائلهم لديوان السلطنة الهمايونية (الباب العالي) في إسطنبول، زادت حدة المرض على السلطان محمود خان، وبادر للبحث عن حليف قوي يساعده في مواجهة الخطر الداهم. بحث عن المساعدة لدى الأمبراطورية المقدسة (ولاخيا وجوارها) التي لم تتحمس للدفاع عنه، حيث مازالت جراحهم تنزف من هجمات العثمانيين عليهم عبر قرون، وبخاصة أنه يعادي الدول العظمى آنذاك (إنجلترا وفرنسا وروسيا) وهم يتربصون لتدمير الخلافة العثمانية. كما وردت أنباء لنجد عبر معاوني الباشا الأوروبيين، انه يتصل مع بعض ملوك وقياصرة شمال أوروبا (سكندنافيا) لمنحهم امتيازات استعمارية في شرق أفريقيا، حيث الجاليات الإسلامية المتعاطفة مع ولاة السلطان في اليمن، لكن أولئك القوم لم يركنوا لمخالفة الدول العظمى لقاء مزايا في مجاهل القارة الفقيرة.

في الحريق كانت الأحوال ساكنة، لكن الناس يعانون وطاءة المكوس التي يتقاضاها أعوان الباشا، ويصبر الكثير منهم على ذلك سائلين الله أن يرفع الضر عنهم، لكن البعض من الأشرار يتكسبون من أعمال سيئة، من بينها التعدي على بعض العمال، وخطفهم ثم بيعهم للنخاسين. وآخرون يمتهنون السطو على موجودات جيرانهم، بدعوى

أنها من الأسلاب التي حصلوا عليها من العدو، الذي لا يعرفون من هو فبعض تلك السلع مصرية، وأخرى مما جاء به جنود العفيصان من الهفوف، بل أن بعضها تبدو من أملاك الإمام فيصل، وليس لديهم جواب لكيفية ادعائهم ملكيتها. مما أثار غضب العم زيد بن عبدالله ووالده وجده، التعدي الذي مارسه بعض أراذل الحريق على الحاج حسنين، حيث حاولوا بداية اغرائه للعمل معهم (قصاب) والغرض خطفه ثم بيعه، حيث يتجول قوم من دواسر اللدام، يشترون العمال المهرة ثم يستعبدونهم ويبيعوهم لمن يدفع أعلى سعر، حيث في ديارهم سوق لبيع الأحرار المستعبدين ظلماً وبهتانا. لكن آل خثلان رفضوا ذلك لأن الرجل جار لهم، ولن يسلموه للنخاسين الأشرار، الذين بلغت القحة بأحدهم أن يسأل عن كيفية حصولهم عليه، فطردوه قائلين ان الرجل جاءهم في ميدان المعركة، وقد حصرت صدره عن أن يقاتل قومه أو يقاتل أهل التوحيد، واستجار بهم أن يؤوه ويتيحوا له العمل لكسب رزق طيب، حتى تسكن الأحوال ثم يعود لدياره. في يوم ما جاء عند الجد عبدالله بن علي، يطلب الإذن له للسفر مع قافلة من الحوطة، متجهة لمكة المكرمة للتجارة وزيارة البيت الحرام، وكان شهر رجب قد اقترب وفي مصر يعدون العمرة فيه تعدل حجة. حذر البعض من هروب حسنين من الحجاز لمصر، فاستهزاء العم من ذلك حيث الرجل ليس إلا أخ لهم، بامكانه مغادرة العمل متى شاء بعد أن يقبض بقية أجره، وليس بحاجة لهروب أو مشاكسة، وآخر من أشرار الحريق اقترح أن يأخذوا ضمانات على رفاقه، في حال قرر عدم العودة لعمله.

قبل رمضان عاد حسنين من مكة، معه بضاعة جيدة وبسعر مهاود حسب توصية الجد له تم بيعها بربح جزيل، وتحصل على نصيب جيد من العائد. لكن الأخبار التي معه كانت أكثر أهمية من السلع المربحة، فقد ذكر أنه سكن عند الحرم بجوار جماعة من الأشوام، أبلغوه عن أحداث جسام جرت في بلادهم مؤخراً. حيث تزايد قلق إسطنبول من توجه قوات خورشيد، من نجد نحو العراق ذات الموارد الوفيرة، وقد يلتقي مع قوات إبراهيم باشا شمال غربيها، ثم يتوجهوا سوياً نحو عاصمة الخلافة ليتولوا عليها. لذا فقد وجد السلطان محمود وأعوانه ضالتهم، وكان ذلك في قيصر بروسيا ذو الطموحات العالية، لأن يشيد امبراطورية عظمى ذات نفوذ أوروبي، ومستعمرات وراء البحار في أفريقيا وآسيا. وبين لهم أن بروسيا (حاليا أجزاء من المانيا وبولندا) هي من مناطق القبائل الجرمانية، التي كانت تعتبر من همج وغوغاء المخربين شمال الدانوب، لكنهم بعد مئات السنين تحضروا وتركوا الوثنية وغدوا نصارى بروتستانت، ووهبهم الله فكر صناعي متطور، يضاهي ما لدى الإنجليز والفرنسيين. وحصل ذلك القيصر على دعم قوي يحميه من الدول العظمى، جاءه من قريبته الملكة فيكتوريا، التي تنحدر من عترة آل هانوفر الجرمانية البروتستانتية، وقد غدت ملكة الإنجليز ولم تبلغ العشرين. والتي بدورها أقنعت فرنسا الكاثوليكية وروسيا الأرثوذوكسية، بعدم التعرض له في مساعدة الخليفة الإسلامي، حيث ان اسقاط إسطنبول لم يحن أوانه بعد، كما يجب ألا يكون ذلك السقوط على يد جيش مسلم! يقوده

إبراهيم باشا مدمر الدرعية وقاتل الإمام عبدالله بن سعود؟ لذلك هب قيصر آل هابسبورج في بروسيا ليساعد السلطان محمود، وليرضي طموحات أعوانه في ضم الدوقيات الصغيرة المجاورة له، وينشئ أمبراطورية الرايخ الألماني. في إسطنبول تصادمت المكابرة والعنجهية التركمانية والجرمانية، فقد أصر القائد البروسي أن يتولى القيادة، لما لديه من عتاد قوي وضباط مدربين وهندسة متطورة، لكن الباب الهمايوني أصر أن يتولى القيادة والي دمشق، الذي سبق له أن فر من المعركة مع إبراهيم باشا، وترك له (جلق) درة الشام. وكانت القيادة التركية ترى أنه رغم هزيمته قبل سنوات، فهو أكثر حماسة ومعرفة بالأرض والسكان، لذا عهدوا اليه بالقيادة العليا للميدان، وأصبح القائد البروسي مجرد أحد ضباط الفرق. ولتفادي الجبال العالية قادهم الباشا نحو بلدة يقال لها "نصيب" أقاموا معسكرهم جنوبها، في مكان يقع حالياً شمال مدينة القامشلي، حيث سهول منبسطة تتخللها تلال صغيرة، وخطته أن يتجه من هناك إلى دمشق ليستعيدها، ويمحو آثار هزيمته هناك قبل سبع سنوات عجاف، ولم يأخذ أي حساب لوجود إبراهيم باشا في غربيه، معه الجنود المصرية المنصورة بعون الله، يقودهم ضباط من فرنسا والبلقان واليونان. بعد أيام من استراحتهم لشدة الحر وبعد السفر، فوجئ الباشا التركي بطلائع قوات الباشا الألباني، الذي رغم وعثاء السفر شن هجوم خاطف عليهم، وقام فرسانه الممتطين جياد عربية خفيفة الحركة بالالتفاف على الساحة، وعاثوا في عدوهم القتل والتشريد، ولم تتمكن جياد أوروبا الضخمة ثقيلة الحركة من مجاراتهم. سارع باشا دمشق للفرار مرة ثانية ولحقه القائد البروسي، غنم إبراهيم باشا أموال طائلة، وقدر جم من المدافع الحديثة الكبيرة والذخيرة. ثم أرسل لوالده في مصر البشارة، مع رجاء حار ألا يمنعه من التوجه نحو إسطنبول، كما جرى قبل سنوات بل استحثه لإرسال المدد، حيث لا يوجد في طريقه جندي تركي يمنعه من دخول دار الخلافة. أضاف لهم حسنين أن بعض المعتمرين المصريين، وصلوا مكة قرب نهاية رجب وأخبروهم أن محمد علي (الوالي) جهز قوات غفيرة، وركبوا في أكثر من ستين سفينة من دمياط والإسكندرية، متجهين إلى لاطاكية (اللاذقية حالياً) لدعم جيش إبراهيم باشا في غزوته نحو إسطنبول. وأكد لهم ان البعض أخبروه بعزم والي مصر الوصول هناك بعد العيد، وأن يستولي على تراث الخلافة (الجبة والسيف والعصا والشعرة) لتعود في حوزة مصر كما كانت منذ سقوط بغداد على يد التتار، قبل ان يستولي عليها السلطان سليم، لما غزا البلاد وقتل واليها قنصوة في دابق، ثم شنق ولده طومان على باب زويلة.

أصاب الوجوم كافة الحضور من نباء قرب زوال الدولة العثمانية، على يد جيش مصر الذي لا يعرفون ماذا يمكنه عمله، وفزع البعض منهم للتشكيك في رواية الحاج حسنين، واتهموه بالنقل عن أشخاص غير ثقات، بل تحدث أحدهم عن كذب روايات الخدم. رد العم زيد بأننا على ثقة من هزيمة جيش السلطان، وهروبهم من الشام وسيطرت إبراهيم باشا على الأناضول قبل أكثر من خمس سنوات، وربما زادت قوته

الآن ويمكنه التوجه شمالاً، مادام ان إسطنبول هي التي كسرت اتفاقية الهدنة، وهاجمته متعاونة مع بروسيا التي ليست احدى القوى من الطراز الأول، التي رعت الهدنة بين محمود خان وإبراهيم ابن محمد علي. كان في مجلس الجد عبدالله بن علي حشد من آل خثلان، وجمع غفير من سكان الحريق على اختلاف أصولهم، منهم البسطاء البلهاء وآخرون من العامة، وبعضهم على درجة عالية من العلم والإدراك. أشار أحدهم انها "ساعة مباركة" إذا تخلصوا من نفوذ العثمانية الترك أهل البدع والبطش، فقال آخر بل هم من دافع عن حمى الإسلام، وبخاصة لما جاء الصليبيون زمن البكيرك، قبل ثلاثمائة سنة وأحرقوا بلادنا على البحر الشرقي، ثم اقتربت سفنهم الضخمة من فرضة الحرم (جدة) وكادوا يستولون عليها. آنذاك لم يصد أهل البرتقال النصارى سوى جيوش السلطان سليم، كما كافحوا نفوذ المجوس الصفويين الفرس، أعداء السنة وأهل البيت والصحابة وأمهات المؤمنين. فهل يقدر والي مصر الألباني على تولي الدفاع عن ديار التوحيد والسنة؟ أيده أحد الجالسين بالقول ان مصر منذ آلاف السنين عاجزة عن الدفاع عن نفسها من الغزو الخارجي، بل لم تحكم أي من الدول المجاورة لها، بل لما جاءها المستضعفون مثل يوسف عليه السلام وكافور صاروا حكام. وفي عهد الخلفاء الراشدين (عمر وعثمان) رضي الله عنهما، كانت تُحكم من الحجاز ثم زمن الأمويين تديرها دمشق ثم بغداد زمن العباسيين، وبعدها من فاطمية القيروان (تونس) ثم أيوبية كردستان تلاها سيطرت مماليك وسط آسيا حتى استولت عليها القسطنطينية. فهل بعد هذا تقدر على الدفاع عن أمة الإسلام من شرق الأرض إلى غربها؟ ولما بقي التراث النبوي فيها نحو ثلاثة قرون، بعد غزو التتار لم تقم بأي عمل فيه عزة الإسلام، فهل نأمل منهم الخير بخاصة ان تدمير الدرعية كان على يدهم؟ أشار الحاج حسنين بطرف عينه للعم زيد، فقال هذا رفيقنا من بني فزارة القاطنين في مصر، وهو صامت يسمع كلامكم الثقيل عن بلاده فلنسمع منه.

تحدث الرجل بوقار ورزانة قائلا إن المصطفى عليه الصلاة والسلام، أوصى أمته بأهل مصر وأنهم خير أجناد الأرض ولا يزالون في رباط إلى يوم القيامة، وأرضهم مقبرة الغزاة منذ زمن الهكسوس حتى الآن، وقدومهم للدرعية كان بأمر من خليفة المسلمين، ضمن جيش يضم الترك والأشوام والمغاربة وحتى النصارى من فرنسا واليونان. وسبب قدومهم هو لدفع الضرر عن قوافل الحجاج، الذي قام به بعض البدو ولم تسلم منهم حتى والدة السلطان، بل وسرقوا جواهر المرقد الشريف في المدينة المنورة. لم يدعه أحد الحراقى يكمل فرد عليه ان الحديث الذي أورده لم يثبت في الصحاح المعتمدة، وأما ان بلده مقبرة للغزاة فهذا لأنهم يستكينون لهم فيحكمونهم إلى أن يموتوا، وحتى الغجر سيطروا على مصر بعد طردهم من أرض غوجراه الهندية. تطلع المصري نحو العم زيد فرد على الرجل أن يتركه يكمل روايته، فبين حسنين أنه قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة، تناقصت مياه نهر النيل ثم جف تماما لمدة تسعين سنة، وانقطع جريانه لما توقف جنوب النوبة بمسيرة عشرة أيام، في أرض الغزال المعروفة.

وأدى ذلك لزوال حضارة بناة الأهرام، الذين كانوا يهتمون بمقابر ذويهم ويدفنون معهم الحلي الذهبية والمصاغ، مما أدى لتوافد أعداد كبيرة من الغجر، الذين يعملون في تحضير النورة والجير والجص، حيث تلال مصر فيها أحجار جيدة "المنتجات الجبت" من تماثيل وأدوات منزلية، ثم أخذوا ينبشون القبور لنهب محتوياتها. ولم يدخلوا مصر غزاة بل عمال حجارة، ولما نفذت الموجودات غادروا متجهين نحو شرق أوروبا (غروبا) حيث ما زالوا. وبعد حقبة الجفاف عاد بحر النيل للجريان متخذاً مجرى شرق ما سبق، وما زالت بعض الواحات في صحراء لوبيه علامات المجرى السابق. ثم جاء الإغريق لمصر وشيدوا الإسكندرية بمكتبتها وفنارتها، وقبل الميلاد بقرنين جاءها الرومان ثم البيزنطيون لتصبح جزء من حضارة البحر المتوسط. ولم يمضي ربع قرن على البعثة المحمدية إلا وقد غدت مصر كنانة الإسلام، وانتقلت لها حشود من جزيرة العرب والعراق والشام، للزراعة والرعي على ضفاف نيلها المبارك، لذا فإن أهل مصر ليسوا من الغجر. فرد عليه أحد الجالسين ان أبلغ وصف لبلدكم، ما قاله أرطبون العرب (عمرو بن العاص) ان نيلها ذهب ونسائها لعب ورجالها طرب وهي لمن غلب، وأردف آخر بالقول إنه أمضي في مصر عدة سنوات، لما ذهب هناك مع الأمير عمر بن سعود، بعد معركة الرياض. وقد شاهد الكثير من البدع وممارسات الشيعة، وبخاصة عند مسجد قبر الحسين، والتوسل به وطلب المدد منه وهو مدفون في كربلاء، وكذلك مساجد زينب ونفيسة وسُكينة، الذين قال له أحد السنة أنها قبور بائعات الفجل ولسن من آل بيت النبوة، وحتى لو كن كذلك فتلك "الأعمال القبورية" تعتبر من ألوان الشرك أو البدع، كما شاهدهم يصبون زيت المصابيح المحروق، في عيون المرضى فيتحول الرمد إلى عمى، وقد قالوا فيكم {ياأمة ضحكت من جهلها الأمم} وهو كذلك.

تبسم حسنين وقال أنتم السادة والكبراء! لكننا والله لسنا شيعة ولا روافض بل نحب ونود قرابة رسول الله كما ورد في القرآن، وأنا ينادونني جيراني حسنين السني، لا أحيد عن الكتاب والسنة قيد أنملة. إن المصريين منذ طرد الفاطمية الروافض زمن صلاح الدين وهم على السنة، بل ان أسواء سبة لرجل ان يقال له {كأنك رفضي} أما ذاك العراقي الذي تتباهون به وتحفظون أشعاره وتسمونه ملك الشعراء فهو الرافضي الحقيقي، هو وسيده سيف الدولة أعداء السنة. لقد جاء مصر متسولا المال والجاه، بعد أن ادعى أنه غريب "كصالح في ثمود" ثم اشاع أنه نبي مرسل، ولما عرف المصريون خبث طويته وعمله نبذوه، فحقد عليهم وسبهم وافترى عليهم، واتهمهم زوراً أنهم كذابين ضيفهم عن القِرى وبخلاء. ومسجد الحسين لا علاقة له بالروافض وبدعهم الكربلائية والشيرازية، وقد دفن رضي الله عنه حيث استشهد في كربلاء، كما يعرف الجميع لكن رأسه أرسل لدمشق، ثم دفن في عسقلان (فلسطين) أثناء نقله للمدينة، وبعدها بقرون جيء به للقاهرة. أشار الجد علي بيده للتقدم نحو مائدة الطعام، وتمنى على الجميع الكف عن الخوض في مسائل مصر، لكن حفيده (العم زيد بن عبدالله) راودته نفسه للسفر لمصر عوضاً عن الذهاب للهند، ومنذ تلك الجلسة أخذ يشاور نفسه في ذلك،

بخاصة أن عدد كبير من ذرية الإمام محمد بن سعود كانوا هناك، وعلى رأسهم الإمام فيصل بن تركي، وكذلك لفيف من حفدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وعلى رأسهم عبد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن. وبينما هم يفرغون من الطعام صاح قادم بالبشارة، وهي ان السلطان محمود خان قد مات في إسطنبول، بعد أيام من وقوع الهزيمة على قواته في نصيبين جنوب الاناضول على يد إبراهيم باشا، لكن الجد علي أشار بعدم جواز التشفي بموت أحد من أهل القبلة. تشاور العم زيد مع والده حول السفر لمصر، حيث الطلب جيد على الأنعام النجدية والحمير الحساوية، ولجلب الثياب وبعض النباتات والأطعمة من هناك، كما تتوفر منتجات معدنية وخشبية بجودة مقبولة وأسعار منافسة، يمكن بيعها بعائد مجزي في اليمامة أو القصيم. لكن جده كان معتل الصحة وبحاجة للرعاية، كما أن حسنين ما يزال غير قادر على مرافقته لمصر، ورجال الباشا يتربصون بكل الفارين من الخدمة الحربية، ويخشى ان يقع في قبضتهم فيفتكوا به. ثم أضاف لذلك أن أرض جدهم التي على ضفة الوادي بحاجة لعمل صِنع، يحجر فيضان السيل أن يطغى عليها، ليتمكنوا من إحيائها وتخصيبها لتصلح لزراعة شجر الفاكهة والحيش.

روى العم زيد لوالدي (رحمهما الله) أنه أمضى شهور في استصلاح الأرض، اضطروا في بعض الأحيان للاستعانة برجال من الحلة، بالأجر اليومي للمساعدة في العمل، الذي كانت أصعب أطواره نقل التراب وبعض الحصى من بطن الوادي. إلا ان كثرة البغال في الحريق من غنائم الحرب، ساعدتهم في رفع مستوى الأرض وتسويتها، لتكون صالحة للزراعة ويدخلها السيل وتعلوا قليلا عن شدة الفيضان الغامر. عند نضج التمر في بساتين البلدة، وردهم نباء على عجل من الرياض، بأن خورشيد وخالد قد أصابهما الكدر لورود أنباء من مصر والشام، عن تجمع دول أوروبا ورفضها أن تتوجه عساكر محمد علي من شمال الشام لغزو إسطنبول، ومن ثم اسقاط الإمبراطورية العثمانية والاستيلاء على الخلافة الإسلامية، ومن ثم تحجيم سطوة الباشا بإخراج قواته من الشام والعودة لمصر. إلا ان الخلاف دب بين الأوروبيين فقد زادت أطماع فرنسا في تركة الدولة العثمانية المريضة، فغزت واستحلت الجزائر المغربية القريبة من مرسيليا (مرسى الليل) وشيدت حصونها على الساحل، كما أن ضباطها الكبار قادة بعض فرق إبراهيم باشا، قد أوصوا أن يستمروا هناك توطئة لحصول فرنسا على قواعد في سواحل الشام وجباله، وبخاصة أن بعض النصارى هناك تحولوا للكاثوليكية. إلا ان ملكة الانجليز البروتستانتية عارضت تلك الأطماع، لذا تحالفت مع أشباهها في بروسيا والنمسا لصد الخصم الفرنسي، ثم أرخت العنان لروسيا الأرثوذكسية ليقوم قيصر بطرس بورج، بضم ديار الإسلام شرق العثمانية لإمبراطورتيه، مثل الداغستان والشيشان والبشكير وتتارستان. لذا رأت فيكتوريا إقامة لقاء في عاصمتها بين أولئك الحلفاء، يحضره مندوب السلطان عبد المجيد الذي تولى حكم إسطنبول بعد وفاة أبيه، والذي كان يشعر بضعف قدرته، لذا أمر مندوبه بالموافقة على كل ما تراه الملكة. التي

كان عدد من وزرائها ومشاوريها من اليهود الانجليز، الطامحين سراً في ان تسيطر على الشام، حيث "جبل صهيون" المقدس عندهم، والراغبين في إقامة دويلة لليهود عند رحابه. لقد تقرر في ذلك الاجتماع الذي عقد في لندور (لندن حالياً) عاصمة الانجليز، أن يسحب إبراهيم باشا كافة قواته من الأناضول والشام، ويعود فوراً عند أبيه في مصر، التي اعترض مندوبها في اللقاء على ذلك. لذا سارعت الملكة الاهية لاستخدام سياسة "الجزرة والعصا" التي تستخدم عند قيادة (سياسة) الحمير، حيث تعلق أمام الحمار جزرة حمراء بديعة في عصا، لكي يحث السير ويحصل على الثمرة، فإن تراخى فستلهب مؤخرته ضربات العصا، فأمرت معاونيها أن يعرضوا على مندوب محمد علي، قرار أن يمتنع سلطان عن اختيار من يراه ليكون والي مصر، بل يلزمه اصدار فرمان (مرسوم) بتعيين الوالي الذي تختاره ذرية محمد علي من كبرائها، ويبقى ذلك حتى يبلى التراب ويشيب الغراب! وإذا رفض فسترسل قوات المتحالفين لإرغامه على الخروج ليس من الشام فقط بل من الحجاز ونجد واليمن أيضا.

مرت الشهور وآل خثلان مشغولون في شؤون أهلهم، ورعاية زراعتهم وتجارتهم ودوابهم، يحاولون تفادي الاصطدام مع عمال خورشيد، الذين كانوا يجحفون في تقدير الضرائب المفروضة عليهم. ثم مؤخراً اتجه المصاروة لحيلة جديدة، وهي شراء السلع أو البهائم بضعف سعرها، مقابل سند مديونية تدفع قيمته بعد سنة، وهو أمر فيه مخاطر عدم الدفع، لذا كان أكثرهم يحجم عن التعامل بتلك السندات الورقية. بينما كان العم زيد في الدلم لبعض شئونه، أرسل اليه أحد السبعان يدعوه لوليمة، أقامها تكريماً لأمير من آل مقرن، وكما تعلمون يا أحبتي فإن ذرية الإمام محمد بن سعود (مؤسس إمارة الدرعية الأولى) هم من آل محمد بن مقرن، لكن الحرص على التمييز جعل القوم آنذاك يلقبون ذرية إخوة الإمام وبنو عمه {آل مقرن} وهم جميعاً أهل مناقب حميدة. ورغم ان العم لا يسارع لولائم الكبراء، إلا أنه رأى من الواجب تلبية الدعوة، وذلك ليساهم في الأمر بعدد من الخراف وقعود، وكمية من القهوة والحنطة والتمن. كما يدعو ابن مقرن لزيارة بلدة الحريق، ليتمكن أهل وادي الفُرع من إكرامه والحفاوة به، كما هي شيمة كبار قبائل سبيع في المنطقة. حضر الضيف للسرادق المتسع للحشد الغفير من أعيان الدلم وسبعان اليمامة، كما جاء عدد من الفقهاء وطلبة العلم، على رأسهم الشيخ عبدالرحمن بن حسن، حفيد محمد بن عبدالوهاب، وهو من المحبين لجنوب اليمامة، ومنذ عودته من الأسر في مصر زمن الإمام تركي، وهو يتردد على المنطقة ولديه فيها مسكن ومزرعة وأنعام. بعد الطعام انتشر أكثر الحضور وتوجهوا لشؤونهم، وبقي لفيف منهم يتبادلون الحديث مع الضيف، الذي اندفع في الكلام بالغرائب منها توجيه النقد واللوم للأمير خالد بن سعود، الذي استنكر استمرار خضوعه لرغبات خورشيد. وقال إن والي مصر قد خسر المعارك في الشام، والتي نشبت بعد رفضه شروط السلام مع إسطنبول، كما وردت في اتفاقية لندور بإشراف ملكة الأنقليس. وأكد ان قوات الحلفاء دكت مواقع إبراهيم باشا في أضنه، ثم اتجهت لتخرجه من سواحل الشام في

طرابلس وبيروت وحيفا، كما ألبوا ضده نصارى الجبال والدروز، وهم يعدون سفنهم للتوجه للإسكندرية للقضاء على ما تبقى من قوات محمد علي. ومع هذا فما زال ولد أبو شوارب، يرتعد من كلمات خورشيد الذي سيضطر قريبا للهروب لمصر. ولم يكتفي بذلك بل توعد من تبقى من ذرية الإمام محمد بن سعود بسوء العواقب، وإن عليهم الرحيل للمنفى والحبس عند الإمام فيصل، وأن بقية ذرية مقرن بن مرخان المريدي هم الأجدر بحكم نجد. ساد الصمت في المجلس والجميع مشوشي الفكر حول ما يجب قوله، ماعدا الشيخ عبدالرحمن الذي استنكر ذلك العرض غير المتوافق مع هذه المرحلة الزمنية، وتحاشى مخاطبة ابن مقرن مباشرة، واكتفى بنصح الجميع لتفادي الدخول في حديث أو تحرك يسر الأعداء، ولا يعود بأي طائل على جمهرة المسلمين في نجد. وسارع الشيخ بالقيام ومغادرة المكان لتفادي الدخول في مهاترات، وتبعه كافة الحضور مؤيدين له وتاركين الرجل ومضيفه وحدهم.

ازداد اعجاب العم زيد بالشيخ عبد الرحمن، الذي عرفه منذ سنين كمحب لأهل جنوب اليمامة، فقد كان يعمل على اصلاح ذات البين، وتقديم الفتاوى الشرعية لإرشاد الناس لما استشكل عليهم من أمور. كما كان الرجل من المحبين لوادي الفُرع، ويزور بين آونة وأخرى الحريق والحوطة، وينصح الجميع لنبذ الخلافات وحلها بالحسنى، والبعد عن السلب وسفك الدماء بخاصة بين القرابة والجيران. وذات مرة كان في حي آل خثلان بالحريق، وأوصاهم للتمسك بمقاصد الشريعة، وقال ان الكثير يغبطونكم ليس على كثرة مال وأولاد وتعالي، لكن بما حباكم الله من حسن الخلق والبعد عن الأذى. فعلى خلاف ما يقوم به البعض من تعدي على أبناء عمهم أو خالهم أو أصهارهم، من أجل الاستيلاء على حفنة دراهم أو منصب دنيوي، فلم نعرف عنكم أن سفكتم دماء قرابتكم أو عابري السبيل لغرض رخيص، بل هناك أمور لا تتجاوز الملاسنة أو المشاجرة، وإذا استفحلت لا تتعدى عدوان يسير على الأشياء. خلاف ما نشاهده في محيطنا من استيلاء وقتل وهتك أعراض، لغاية تافهة لا تستحق أن يكتسب فاعلها الخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. ثم زاد بقوله إنه كان في الحاير ومعهم سبعان وبعض عجمان اليمامة، وتمنى البعض منهم أن لو كانوا بعيدين عن العدوان الآثم، وذكر أحدهم ما جرى بين جماعته من اقتتال أثناء الصلاة، على قيمة رجل حر استعبدوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه، وأوصاه أن يكون ذلك هو ديدنهم لا يحيدون عنه، وآنذاك قال له الجد علي {نسأله تعالى أن نكون خير مما تظنون وأن يغفر لنا ما لا تعلمون} فرد عليه بقول آمين. وذكر العم زيد لوالدي (رحمهما الله) أنه بعد مغادرة الشيخ عبدالرحمن الحريق، تحدث بعض الجماعة عن مضمون كلامه، وهل لا يعلم عن الضغائن والبغضاء والتحاسد وتمني زوال النعمة بين البعض منا، فرد عليه أحد كبار آل خثلان ان الشيخ يعرف ذلك، لكن فحوى كلامه هو النصح والأمر بالمعروف وليس التوبيخ.

بعد عودة العم زيد لأهله بفترة غير طويلة، جاء مندوب برسالة من السيح فيها دعوة من الأمير خالد بن سعود (الأفندي!) ليقدم عليه ثلاثون رجل بسلاحهم وجهازهم، للتوجه معه وبقية العرب لغزو وتأديب العصاة في الوشم والقصيم. عندها حدثهم عما سمعه أثناء وليمة السبيعي لابن مقرن في الدلم، وتفاصيل ما قيل في المجلس عن اضطراب أحوال والي مصر، وكيف ان ذلك سينسكب على أحوال خورشيد وتابِعه خالد. كما ذكرهم أحد آل خثلان بما قام به إبراهيم باشا قبل أكثر من عشرين سنة، لما استدعى بعض أفراد من بلدات نجد، وحبسهم في ثرمداء حتى يرسل له قرابتهم المال والركائب، التي يحتاجها في رحلة عودته لمصر، وقتل عشرات من الذين لم يسلموا له ما طلب، لذا دب الذعر في قلوب الجميع وعزفوا عن الذهاب لخالد أو خورشيد. لكن الخوف من عصيان أمر الوالي دفعهم للتحوط، فأرسلوا خمسة رجال اثنان من الأهل وثلاثة من الخدم، وقلبوا الحال فجعلوا العمال في هيئة العشيرة والعكس، ونصحوهم أن يذكروا ان بقية جماعتهم قادمون في ساقتهم، وهم يستطلعون متطلبات الغزو ليعود البعض منهم لإحضارها مع البقية. ولما وصلوا الوشم علموا ان الباشا قد غادر للقصيم، وقال لهم أحد رجال الأمير خالد (الحبشي) أنه ايضاً سيتوجه إلى هناك، وحثوهم لإحضار أموال من عند جماعتهم كمساهمة نقدية في الجهاد، والحضور بها سريعاً إلى بريدة. ولما عادوا للحريق تبين لآل خثلان ان خورشيد وخالد في حال مضطرب، وقال البعض انهم يزمعون الفرار من نجد والعودة لمصر، لذا تقرر إهمال طلبهم للمال فهم في دبور، بخاصة ان الأنباء تفيد بانهيار جيش محمد علي وولده إبراهيم، وتراكم الديون على خزائنهم، مما اضطرهم لقبول الشروط الجائرة لاتفاقية لندن.

أستأذنكم أيها الأحبة ان نتوقف لبرهة، لسرد مرئيات الأسرة وصاحب السيرة، في شأن ذلك الحدث الجلل (انهيار إسطنبول) الذي أثار احتماله كثير من الجدل، حيث ان سيطرت العثمانية على مقاليد الأمور لعدة قرون، واحتمال سقوطها علي يد جيش مصر، كانت تثير أفكار متضاربة نود سردها لاستخلاص العبرة منها. لكن ذلك يلزمه متسع من الصفحات لا يتوفر في هذا الفصل، لذا سنؤجله للفصل التالي، الذي سيقوم على سرد من قبل العم زيد بن عبدالله وابن أخيه والدي رحمهما الله، وسيكون عنوانه "التفكير الحميري" وهو عنوان صادم، لكنه متوافق مع أسلوب العم زيد القدوة الأولى لصاحب هذه السيرة وما فيها من عبر، وسنبين هناك تفاصيل الأسلوب النزق في التعبيرات الكلامية المثيرة، ومن بينها ما قيل لمن تضجر من طرق بابه بغلظة في أول المساء، "هذا طلاب حق وفي يده معدال" حيث كان العم ذو فكر متميز، وحدة لا تبررها إلا أحواله الشخصية الخاصة رحمه الله وكافة الأحبة.